السلسلة
التاريخية

د. عبد القادر جغلول

مقدّمات
في تاريخ المغرب العربي
القديم والوسيط

ترجمة: فضيلة الحكيم

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
ص.ب: ١٤٥٦٣٦ - تلفون: ٨٣٣٩٨٩ بيروت - لبنان

د. عبد القادر جغلول

مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط

ترجمة : فضيلة الحكيم

طريق المطار - شارع سيدي حسن الفتال
بناية حلمي عويدات
تلفون: ٨٣٣٩٨٩ - ص. ب: ١٤٥٦٢٣٦

الطبعة الثانية
١٩٨٨

مقدمة

ان المقدرة الصحيحة على نقل وقائع الماضي هي احد عناصر الوعي القومي المتجانس والديناميكي ، القادر على مجابهة الحاضر والتطلع الى المستقبل . هذه الكفاءة ليست موجودة في الوقت الحاضر ، فتاريخ بلدنا لم يستوف حقه من الدراسة حتى الان ، والوعي لا يزال مثقلا بالتفتت الثقافي والتلاعبات التاريخية التي جاءت بها الايديولوجية الاستعمارية وبظهور تلاعبات جديدة كانت النتيجة : تاريخ ممزق ، وعي تاريخي ضعيف ومشتت سببه مواقف مجيدة ومواقف خفية .

لذا وجدنا من الضروري وضع حد للمعلومات الخاطئة وبناء جهاز مراجع يسمح لشعوب المغرب بالاطلاع على تراثهم وسط التعقيدات والاستمرارية او التقطع الذي يلف تاريخنا خلال الثلاثة آلاف عام الاخيرة .

شعوب المغرب في مرحلة ما قبل الاسلام
ظهور الدولة، الاستعمار الروماني
والمقاومة النوميدية

لم يؤسس الرومان ولا العثمانيون ولا الفرنسيون اسباب تكوين المجتمع المغربي القديم، اذ ان تطور البناء الاجتماعي القديم، كواقع مهيأ للاستمرارية والتضامن السياسي ابتدا في القرن الثالث قبل الميلاد: هذا البناء انشىء على اساس نضج داخلي.

ا ـ وضعت حدود المغرب الحالية في هذا العصر. اما في الماضي، فالممالك البربرية الاولى كانت تحدها الملوايا Moulouya من الغرب، والمناطق الخاضعة لسيطرة قرطاجة من الشرق. وفي هذا الاطار كان الاستعمار الروماني، وفيه توسعت الممالك المغربية في القرون الوسطى، وسيصبح فيما بعد اطار المغرب العثماني ومن ثم المستعمَر وهو اخيرا اطار دول المغرب العربي المستقلة.

٢ ـ تمثل الممالك البربرية الشكل البدائي للدولـة آنذاك . ونجد مع كل من ماسينيسا وجوكورتا وميسيبا ,Massinisa) Jugurta, Micipa) انظمة حكم تستقل تدريجيا عما يجاورها . ولم تدخل رووما اي تنظيم للدولة في الجزائر ، مثلا ، بل احبطت النموذج القائم وحاولت ان تنشىء على انقاضه ، دولة تؤيـــد العبودية او الرق .

واذا لم تستطع ممالك البربر ان تدافع عن نفسها بشكل فعال ضد الاستعمار الروماني فذلك لا يعني ان التضامن الاجتماعي لم يصمد والدليل : مقاومة الشعب النوميدي ، على غير وجه ، لهذا الاستعمار .

ظهور الممالك البربرية

قرن ونصف تقريبا طول الحقبة التاريخية المتعلقة بالمالـــك البربرية والتي ظهرت خلالها الدولة النوميدية في اطار جغرافـي متجانس .

٢٠٣ ق.م : توحيد نوميديا على يد ماسينيسا .

٤٦ ق.م : هزيمة وموت جوبا الاول Juba ، آخر ملك نوميدي مستقل .

هيأ السياق العالمي في القرن الثالث شروطا سانحة لبنـــاء دولة نوميديا : قرطاجة وروما تسيطران على البحر المتوســـط الغربي وعلاقات نوميديا الاقتصادية مع هاتين الدولتين تقـوي تيارات التبادل التجاري داخل المجتمع النوميدي وتسرع فــي عملية بناء الدولة . والصراع المميت من جهة اخرى بين رومــا وقرطاجة يسمح بتطور استقلالي في المجتمع النوميدي .

لقد اصبحت قرطاجة ، تلك المستعمرة الفينيقية التي انشئت

في القرن التاسع ق.م احدى المراكز التجارية الاكثر ازدهارا في المتوسط . وقد ارتكزت ثروتها بصورة خاصة على التجـــارة البحرية . والارستقراطية المتاجرة التي تدير الحكم ، كانت تستمد قوتها من مكانة الوساطة التي تتمتع بها قرطاجة بين مختلف المدن سواء في البحر المتوسط او في افريقيا .

وتصل قرطاجة الى ذروتها في نهاية القرن الرابع ق.م. حين خوّلها سقوط صور عام ٣٣٢ ان تحتكر التجارة في المتوسط .

ولقد كان لدخول قرطاجة في بلاد المغرب اهمية ، فالمتاجـر القرطاجية كانت منتشرة على الساحل الجزائري، وحول قرطاجة، داخل تونس الحالية كان القرطاجيون يستثمرون الاراضي التي تملكها عائلات حاكمة مثل ماغـــون وبركا (Magon, Barca) ويعمل فيها عبيد بربر .

لكن هذا الاستعمار الزراعي لم يكن الوجه الرئيسي لتوطـن قرطاجة في المغرب ، حيث ان المصالح القرطاجية كانت بصورة خاصة تجارية ، والمتاجر اماكن يجـــري فيها تبادل الخشب والصوف والزيت والجلـــود والحبوب البربريـــة مع الادوات والاسلحة الحديدية والجواهر والملابس الفاخـــرة التي كـــان القرطاجيون يأتون بها من مناطق حوض البحر المتوسط الاخرى .

والتأثير القرطاجي على البنية الاجتماعية النوميدية مزدوج : التأثير المباشر هو ان علاقات قرطاجة ـ نوميديا تظهر على انهـــا علاقات سيطرة ؛ وبواسطة التجارة والضرائب المفروضة علـــى الشعب البربري ، تكون قرطاجة قد اقتطعت جزءا من فائـــض الاقتصاد النوميدي .

والتأثير غير المباشر هو ان قرطاجة اسرعت في تطور البنية الاجتماعية النوميدية وذلك بتنمية علاقات التبادل بين نوميديا ودول البحر المتوسط خاصة اليونان . وقد تبنى النوميديـــون بعض عناصر الحضارة القرطاجية كاللغة وخاصة الديانة .

اما روما ، تلك البلدة القروية في «اللاتيوم» Latium ، التي اسست في القرن الثامن ، فقد اصبحت في القرن الثالث، مدينة عظيمة تسيطر على ايطاليا كلها وتشعر بضرورة غزو بلاد جديدة مما جعلها تتجه نحو صقلية وبلاد المغرب حيث ستصطدم بقرطاجة .

وقد عرفت الجمهورية الايطالية منذ بدايتها بالصراع ما بين طبقة النبلاء اي الاشراف وطبقة العامة . فطبقة النبلاء ، ذات القاعدة الاقتصادية القوية والملكية الشاسعة ، تحتفظ بالسلطة السياسية في مؤسسات الدولة بينما تتالف طبقة العامة من المزارعين الصغار .

في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بدا قسم من العامة يمتلك ثروة عقارية عن طريق التجارة . من هنا كان سير القوى في الجمهورية الرومانية مبني على تناقضين : الاول بين النبلاء والعامة والثاني بين النبلاء والفرسان اصحاب العقارات (chevaliers) . لذا اعتمد مجلس الشيوخ الروماني التوسع الجغرافي كوسيلة لابعاد هذه التناقضات حيث ان غزو مدن جديدة سيكون من شأنه :

- ازدياد قوة طبقة النبلاء بزيادة مساحة اراضيها .
- تخفيف حدة التناقض بين النبلاء والعامة بارسال مزارعين وتوطينهم في الاراضي الجديدة .
- توسيع نطاق الفرسان التجاري .

منذ عام ٣٣٠ حتى عام ٢٦٤ ازدادت مساحة البلاد ثلاثة اضعاف ، ما بين عامي ٢١٨ و ٣٣٨ ، اسست روما ٢٣ مستعمرة حيث وطنت ٨٠،٠٠٠ مزارع . عام ٢٦٤ وضعت روما يدها على ايطاليا ونزلت على شواطىء صقلية لتسيطر عليها . هنا ابتدات الحروب القرطاجية وامتدت حتى تدمير قرطاجة عام ١٤٦ .

خلال هذه الفترة (١٤٦ ــ ٢٤٤) استفادت الحضارة النوميدية

من الظروف السانحة الناتجة عن الصراع بين روما وقرطاجة وابتدات نهضتها .

تاسيس دولة ملكية تتحرر تدريجيا مما حولها هو تطور طويل المدى لم تبلغه نوميديا . هنا يجب ان نحذر خرافة اسمها «ماسينيسا» Massinissa . خلقها مؤرخون يناصرون الاستعمار . لا شك في اهمية هذا الملك . لكن الفكرة القائلة بانه هو الذي «حضر البربر» وبنى الدولة النوميدية فكرة خاطئة وخطيرة . خاطئة لان ماسينيسا استفاد بطريقة ذكية من نزعة النوميديين للوحدة وهيأ لها لكنه لم يخلقها بل كانت موجودة قبله. وخطيرة لان الاقرار بخلق ماسينيسا العبقري للدولة النوميدية يعني ان هذا المجتمع لم يكن قادرا على تكوين نفسه على اساس ديناميكيته الذاتية (١) .

وبالفعل ، منذ بداية القرن الثالث ، يبتدىء تطور تدريجي من النظام الاتحادي (الكونفدرالي) المتزعزع الى المملكة المتمتعة باستقرار نسبي جغرافي وسياسي (انتقال الحكم بالوراثة) ، في هذه الفترة كانت نوميديا منقسمة الى قسمين :

ـ مملكة مسيسيلس Masaesylcs المتدة من «مولويا» الى الوادي الكبير وعاصمتها سيكا Siga (قرب مصب تفنا (Tafna

ـ مملكة ماسيلس Massyles المتدة من غرب الأمسكا Amasga حتى الاراضي القرطاجية وعاصمتها زاما Zama .

تميزت هاتان المملكتان بمركزية الحياة السياسية والاقتصادية، صكت النقود على صورة سيفاكس Syphax ، ظهرت رموز تدل على وجود الدولة كالصولجان واكليل الغار ، ازدادت اهمية الحكم الذاتي الملكي فيما يتعلق بالروابط العشائرية القبلية .

في هذا الوقت لم تكن السلطة الملكية قد استطاعت بعد، تدمير السلطات المحلية الاخرى كالقرى والقبائل لكنها حاولت ضبطها

ولو جزئيا .

ستكون الحروب القرطاجية فرصة ماسينيسا لانشاء دولة نوميدية موحدة ومستقلة . روما وقرطاجة تبحثان عن حلفاء . سيفاكس ، ملك مسيسليس اختار جانب قرطاجة بينما اختار ماسينيسا جانب روما واستفاد من انتصارات حليفه الروماني ليوسع مملكة ماسياس نحو الغرب ضد سيسيلس ونحو الشرق ضد قرطاجة .

هذا التوسع أدى الى ضم الشعوب النوميدية في اطار جغرافي واحد تحت سلطة مملكة واحدة . وفي هذا الاطار الجغرافي المتجانس ستقوم ، تحت حكم ماسينيسا (١٤٨ – ٢٠٣) ، نهضة اقتصادية كبيرة وتطورات اجتماعية تؤدي الى النضج المطلوب .

وقد ادت نهضة الزراعة والتجارة الى ازدهار المدنية . هذه العناصر الثلاث ساعدت على ملكية الارض الخاصة وتطوير طرق التبادل وعلى تفكك الروابط القبلية . وهكذا شملت الزراعة كافة الاراضي النوميدية ونشطت زراعة القمح والزيتون والاشجار المثمرة الى جانب تربية المواشي ، كما سمحت المشاريع المائية بازدهار الزراعة والتحكم بالعوامل الطبيعية ، واصبح فائض المنتجات الزراعية عنصرا ثابتا للتبادل التجاري وخاصة مع روما (٢) .

وقد استفادت نوميديا من افول نجم قرطاجة واصبحت سيدة التجارة في المتوسط حيث وجدت عملات عليها صورة ماسينيسا في كل من اسبانيا وفرنسا وايطاليا واليونان .

وكان للنشاط الزراعي نتيجة جيدة هي ازدهار المدنية في المدن الساحلية ونشوء مدن صغيرة داخلية ، واصبحت شبكة المدن تتألف من اكثر من اربعين مدينة اشهرها : سيترا ، زاما ، وسالدى (Citra, Zama, Saldae) ، واهمها مدينة سيترا نظرا لعدد سكانها (١٥٠،٠٠٠ الى ١٨٠،٠٠٠) ونشاطاتها الحرفية

والتجارية ـ حيث انها ملتقى القوافل الصحراوية ما بين السهول العليا والمدن الساحلية في «التل» ـ وهكذا اصبحت هذه المدينة تنافس بقية مدن حوض المتوسط .

ادى التوسع الاقتصادي الى تطور سريع في البنية الاجتماعية الذي ادى بدوره الى ازدهار الاقتصاد . وتمثل التطور في ثلاثة اتجاهات :

١ ـ تحضر القبائل : كان لتعميم الزراعة ثلاث نتائج : امتلاك القبائل للارض ، تعايش نوعين من المصالح (الحفاظ على حق وراثة الحكم وولادة روابط بين جيران الارض) وتصدع القبائل الداخلي بسبب قدرة العائلات الحاكمة على زيادة ثروتها.

٢ ـ نمو العلاقات الاجتماعية غير القبلية : لم يعد انسان المدن التجارية معروفا بانتمائه القبلي بل بدوره في انتاج ورواج البضاعة فهو بائع ، مشترٍ ، عامل ، مالك ، عبد او سيد .

٣ ـ ظهور ملكية الارض الخاصة : اهمية هذا الحدث غير معروفة ، ولا تعرف اذا كان التجار الاغنياء يمتلكون قطاعات زراعية خاصة كما في قرطاجة ، لكن من الاكيد ان ماسينيسا وافراد عائلته كان لهم قطاعات خاصة شاسعة .

احدى الوسائل التي اتبعها ماسينيسا ليكون سيد دولة وليس رئيس اتحاد قبائل كانت تأسيس قاعدة اقتصادية مستقلة عن اقتصاد القبائل ، وتقدر مساحة اراضي هذا الملك ب ٤٠،٠٠٠ هكتار ، اضف الى ذلك ممتلكات اخرى من بينها مقلع «سيميتو» Simithu الملكي .

وادى تعميم الزراعة من جهة اخرى الى وضع قانون ثابت للضريبة التي كانت تدفع عينا ، وكان الملك يسيطر على التبادل التجاري . هذه القوة الاقتصادية المستقلة كانت اساس بناء الحكم الذاتي .

وكان للملوك النوميديين جيش مؤلف ليس فقط من الفتيان

الذين ترسلهم القبائل بل ايضا من جنود موظفين يدفع الملك رواتبهم . بلغ عدد هذا الجيش – حسب «بوليب» Polybe . ٥٠،٠٠٠ رجل عام ١٥٠ ق.م.

فيما يتعلق بالضرائب والادارة ، يبدو ان ملوك نوميديا بذلوا جهدا كبيرا لاعتماد النظام القرطاجي .

هنا نرى ان سلطة الدولة الراغبة في حل الروابط القبلية لم يكن لديها الوقت الكافي لتحقيق ذلك والاسراع في تقسيم المجتمع النوميدي الى طبقات لذا فالدولة لم تتدخل في مصالح القبائل بل فرضت عليها سلطتها . وقد حاول ماسينيسا تقوية هذه السلطة لكن فكرة تأليه الملك او الحكم الوراثي لم تكن قد وردت بعد . وسيعمل الملوك ميسيبسا ، جوكورتا وهيارباس Micipsa, Jugurtaa, Hiarbias كذلك على تقوية جهاز الدولة لكنهم سيصطدمون بالدولة الرومانية التي ستوقف التطور وستسقط نوميديا تحت ضربات الجيش الروماني وبعد مقاومة ستستمر قرنا من الزمن .

انهيار الممالك البربرية

بعد سقوط قرطاجة ، اصبحت دولة نوميديا العائق الاكبر امام التوسع الروماني المناصر للعبودية وامتلاك العبيد والمتعطش للاراضي والعبيد والمال . هذا ما دفع روما لتدمير نوميديا التي تحول بينها وبين سهول الحبوب في بلاد المغرب . دام هذا الصراع قرنا كاملا وانتهى لصالح روما .

وسبب تدمير روما للدولة النوميدية هو تفاوت درجة نمو الروابط بين مجتمعيها والذي تبلور من خلال تنظيمات مختلفة . ومن المؤكد ان حركة التطور الاجتماعي واحدة في نوميديا

وروما من حيث المبدا العام : تفكك تدريجي في الروابط القبلية وتصاعد في الروابط بين الطبقات . لذا نجد أن أكايد Aguellid النوميدي يوازي باسيليوس Basileus اليوناني في العهد الهوميري وركس Rex الروماني في عهد التوركيين .

وقد عرفت روما نوعا من الروابط القبلية لكن تفكك هذه الروابط كان اسرع في روما منه في نوميديا . وهذا التطور يظهر واضحا في اعطاء النظام المبني على الفوارق الطبقية المكانة الاولى. والوحدة الاجتماعية السياسية ليست الناس بل الطبقة ، وهي وحدة اقتصادية وعسكرية وسياسية . والاهمية السياسية لكل طبقة من الطبقات الست تتناسب مع ثروتها .

وانقسام المجتمع الروماني الى طبقات جعل من الضروري انشاء جهاز دولة قوي وضخم حيث يعطى الجيش الاهمية الكبرى . وكان يتوجب على الطبقات الحاكمة في روما ان تحافظ على قوتها الاقتصادية تجاه العبيد العاملين في اراضيها وتجاه الكادحين الذين يحاربون لكسب هذه الاراضي .

وهكذا نشأ نوع جديد من الجيش أسسته الطبقات المالكة التي احتكرت اساليب الارغام .

وكان الجيش الروماني في البداية جيش الطبقة الحاكمة حيث أسسه ومو له رجال هذه الطبقة ليحافظ على سيطرتهم على قية الطبقات داخليا وليوسع هذه السيطرة خارجيا . هنا يكمن لسبب الرئيسي لانتصار الرومان اذ لم تكن الجيوش النوميدية لتي واجهت الغزو قد استوعبت تماما معنى تطور الروابط القبلية حو الروابط بين الطبقات كما لم يكن لها تلاحم وتجانس الجيش لروماني من حيث عدد عناصره ومصالحه المشتركة في حروب الغزو . الجيش النوميدي لم يكن متجانسا بل شمل مجموعات من الشبان المتطوعين من كل قبيلة بالاضافة الى الجيش الملكي . والجدير بالذكر ان الجيوش الرومانية في حروبها مع البربر

استفادت من دعم بعض افراد الارستقراطية القبلية ذات الحكم الذاتي الذي تهدده السلطة الملكية .

هذا الفرق في النمو الاجتماعي والدولي يفسر ولو جزئيا استمرارية المقاومة النوميدية . واذا استطاعت الممالك النوميدية ان تبعث بعد الانهيار – وهذا ما حصل اكثر من مرة – فذلك يعود لطواعية بنيتها . وانهيار مملكة لا يعني هدم حركة اجتماعية تحمل بذور الدولة .

وقد أوجد الرومان في توسع النظام المناصر للرق والمرتبط بالاستثمار الزراعي من جهة وابعاد القبائل وراء خطوط ليم Limes من جهة ثانية ، أوجدوا في هذين العنصرين شروط الهدم الاجتماعية حيث كانت البنية الاجتماعية البربرية تجمد بل تشوه تطور نوميديا .

كما ان جيوشا غير متجانسة تمثل تناقضات المجتمع القبلي والمجتمع الارستقراطي لا يستطيع الصمود امام جيوش مترابطة تمثل مصالح المجتمع الارستقراطي . وهزيمة الممالك النوميدية تعود الى بطئها في التطور في وقت كان نظام العبودية في أوجه . هدم الممالك البربرية هو اذن نتيجة **اوضاع تاريخية** غير مؤاتية (٢) .

طبيعة الاستعمار الروماني

ان فترة الاستعمار الروماني ، حين كان المغرب واحدة من مناطق توسع نظام الرق ، أستمرت خمسة قرون تقريبا .

– ٤٦ قبل الميلاد .

– ٤٢٩ بعد الميلاد ، مجيء الفندال Vandales وتمرد الشعوب البربرية .

لكي نفهم اثر الاستعمار الروماني على التكوين الاجتماعي المغربي ، والنوميدي خاصة ، لا بد لنا من وصف طبيعة الاستعمار الاجتماعية .

ان احتكار طبقة الاشراف لملكية الاراضي هو وراء التوسيع الدائم لنظام الاستعباد . هذا الاحتكار يؤدي الى نوعين من المواجهة : الاشراف مع العامة والاشراف مع العبيد .

ولا يستطيع الأشراف العيش ولا السيطرة الا اذا اشركوا العامة في الارباح اي في امتلاك العبيد وامنوا لهم سبل العيش دون ان يعملوا ، هنا تكمن ديناميكية نظام الاستعباد .

ولكي يزيد الأشراف مساحة اراضيهم وعدد عبيدهم عمدوا الى «دمج» العامة مثلا تعميم الخدمة العسكرية على افراد الشعب غير المالكين وهكذا لم يعدالجيش الروماني جيش طبقة ارستقراطية بل جيش طبقات . ولكي يكون هذا الدمج واقعا يتوجب على طبقات روما المسيطرة تأمين حد ادنى من حاجات الشعب «الخبز والالعاب» هذا ما كان الشعب يطلبه من اباطرته . وكلما توسع نظام الرق ارتبط أمنه وسلامته باتحاد الاشراف والعامة . لذا كان على الأشراف ان يسعوا دائما الى غزو اراض جديدة لتأمين المزيد من القمح والعبيد .

اذن فالنظام القائم على الاستعباد هو اهم خصائص الاستعمار الروماني وديناميكيته تأسست على توسيع القاعدة العقارية وامتلاك الاراضي والعبيد .

لم يطور الاستعمار الروماني طرق الانتاج النوميدية بل اكتفى بالاستفادة من مستوى الانتاج الذي وصلت اليه نوميديا خلال مراحل بناء الممالك . وقد بقيت النشاطات الاقتصادية على حالها: زراعة ، تربية مواشي . بينما حصل تطور طفيف على تقنية الانتاج اذ ان القرطاجيين والنوميديين عرفوا الري ولم تكن المشاريع المائية كالاقنية والسدود والآبار ، التي جاءت بها روما

شيئا جديدا بالنسبة لهم ، بل ان روما رمت هذه المشاريع التي ابتداها النوميديون والتجديد الوحيد الذي جاء به الرومان هو دعم منشآت الطرقات وتقويتها لتامين سير الجنود وتصريف المحاصيل .

اذن ، روما لم تحمل الحضارة الى المغرب ، وهذه خرافة استعمارية تتناقض مع الابحاث التاريخية الملموسة (٤) .

والاستعمار الروماني لم يحدث تقدما اقتصاديا في بلاد المغرب بل افتتح عصر تجميد القوى المنتجة ، تم خلالها اخضاع الزراعة وتصريف منتجاتها لالزاميات طبقة النبلاء Nobilitas الرومانية .

والاكتفاء بزراعة القمح ادى الى كسر التوازن الزراعي والبيئي في بلاد المغرب التي كانت خزان الحبوب في الامبراطورية ، والاكتفاء بزراعة الحبوب على مساحات واسعة على يد العبيد او الفلاحين الشركاء ادى الى تراجع التقنيات الزراعية .

و«ازدهار» بلاد المغرب ايام الاستعمار الروماني خرافة . ومعنى الاستعمار بالنسبة لمجمل السكان البربر كان الفقر المطلق ولم تكن الكلمة تعني «ازدهار» الا للملاكين الكبار والتجار الرومانيين وبعض الجنود فقط .

وسيكون للاستعمار الروماني **اثر مزدوج** على البنية الاجتماعية البربرية . فقد شجع المستعمرون الملكية الخاصة في المناطق التي احتلوها بالقوة كما شجعوا انقسام المجتمع الى طبقات وهذا ما ادى الى انهيار الروابط القبلية .

ولم يسيطر الاستعمار ابدا على بلاد المغرب الاوسط كلها . والمناطق التي بقيت مستقلة حافظت على بنيتها القوية وروابطها القبلية لاسباب اقتصادية وسياسية .

وقد اثر الاستعمار تأثيرا على علاقة الملاكين ببعضهم البعض . وتطور هذه العلاقة هي التعبير القانوني عن روابط

اجتماعية جديدة تؤدي الى زيادة الانتاج . والملكية التابعة للقبيلة بدات تضمحل لتحل الملكية الخاصة محلها .

ادت اقامة المستعمرات ايام حكم الامبراطور تراجان Trajan الى تقسيم الاراضي النوميدية الى فئتين : الاراضي ذات التربة غير الصالحة والتي تركت للقبائل البربرية ؛ والاراضي التي تشكل الاقطاعات الشاسعة التابعة للاباطرة او للخاصة وفيها مستعمرات صغيرة يسكن فيها المحاربون القدامى الرومان واحيانا البربر. وقد نشطت حركة امتلاك الاراضي في عهد ماسينيسا واصبح تقسيم المجتمع الى طبقات مبني على اهمية كل طبقة في حركة الانتاج .

ونستطيع ان نميز ثلاث فئات اجتماعية :

- **المجموعات المستثمرة** : اي كبار الملاكين ، ويعمل في عزبهم العبيد والفلاحون الشركاء والمياومون ، وهم ايضا المسؤولون عن ادارة الاقطاعات الامبراطورية وتحصيل اتاوات المزارعين الشركاء وجلب الضرائب عن الملكيات الصغيرة . وهذه المجموعات ، وان تكن في اصلها رومانية الا انها شملت ايضا بعض البربر الذين استطاعوا الاندماج بها كرؤساء القبائل اصحاب الملكيات الكبيرة ، وبعض التجار ...
- **الملاكون الصغار** وهم اما الذين وضعوا يدهم على المستعمرات الصغيرة بوجه شرعي او البربر اصحاب الملكيات الخاصة . هؤلاء كانوا يتحملون اعباء أميرية ثقيلة وبدل ان يستفيدوا ، كانوا ، على العكس يدفعون «ضريبة الازدهار» في افريقيا الرومانية . والملكيات الصغيرة كانت غالبا ما تذوب في الاقطاعات الكبيرة وأصحابها يصبحون من طبقة الكادحين .
- الطبقات التي لا تملك اراض وأحيانا لا وسائل انتاج تنقسم الى ثلاث :

● **العبيد** وهم بالاساس البربر المغلوبون الذين يقعون في الاسر خلال الحرب ، ولا يكون نظام الاستعباد الا باستعمال وسائل

قمع اقتصادية قاسية كبت العبيد وحرمانهم ، لهذا السبب فقد اتخذ الاستثمار شكلا آخر في المناطق البعيدة نسبيا عن السلطة الرومانية .

● **المزارعون الشركاء** وكان لهم تأثير كبير على الاقطاعات الامبراطورية . والفلاح المشارك رجل حر يستفيد مر قطعة ارض يزرعها ويدفع بالمقابل قسما من المحصول للدولة الرومانية بواسطة المسؤولين الذين يقتطعون جزءا من الدخل الذي يدفعه الفلاح – هذا النوع من الاستثمار يذكرنا بالنظام الاقطاعي .

● **العمال الزراعيون** وهم الاشخاص الذين تنفيهم قبائلهم ويؤلفون طبقة دون الكادحة ، ويستغلهم المسؤولون عن الاقطاعات كيد عاملة رخيصة لجني المحاصيل .

وهكذا يكون الاستعمار الروماني قد ساهم في تاخير البنية الاجتماعية البربرية في المناطق «المستقلة» .

وقد ابعد المستعمرون القبائل الى الجبال والصحراء وهذا ما ادى الى ضياع عدة قرون من التطور . حتى ان هذه القبائل فقدت علاقاتها القبلية وانتقلت من حالة الاقامة في مكان واحد والزراعة الى حالة التنقل . واذا استطاع المستعمرون تهديم الممالك البربرية الا انهم لم يستطيعوا تعميم ذلك على المغرب الاوسط .

وكانت روما تقف أمام توحيد اراضي الممالك النوميدية وتمنع ولادة دولة بربرية وغايتها العسكرية حماية المناطق المستعمرة من تمرد القبائل . وكانت ليم Limes ترمز الى انقسام المغرب الاوسط الى قسمين : المناطق الخاضعة والمناطق المستقلة . وغاية روما الاقتصادية هي الضغط المالي ضمن المناطق الخاضعة والذي يقوم به المسؤولون عن الاراضي الامبراطورية .

ويبدو ان الادارة المحلية كانت لامركزية . وكل مدينة كان لها حكمها الذاتي تحت اشراف نخبة من البربر المندمجين بالرومان

والمؤلفة من التجار والملاكين . والدولة الرومانية لم تفرض ادارة مركزية في الاراضي التي احتلتها . والتنظيم السياسي الاول في القبائل هو الذي استمر في «الجزائر المستقلة» . وقد اكتفى الرومان بمراقبة رؤساء القبائل او الاتحادات واقامة علاقات معهم، اذن فالدولة الرومانية فرضت نفسها على المؤسسات القائمة وحاولت اخضاعها لكنها لم تستطع هدمها . والحفاظ على هذا النظام سيكون واحدا من الدعائم التي ستقوم عليها المقاومة البربرية وتتبلور .

مقاومة الاستعمار

«السلم الروماني» مثل الازدهار الروماني» خرافة . ومظاهر المقاومة لم تتوقف على مدى فترة الاستعمار . وقد عرفت هذه المقاومة اشكالا مختلفة خلال المرحلتين الرئيسيتين من الاستعمار.

- من القرن الاول ق.م حتى النصف الاول من القرن الثالث بعد الميلاد . خلال هذه الفترة ظهرت مقاومة البربر كمحاولة لايقاف الاستعمار .
- من النصف الثاني للقرن الثالث وحتى القرن الخامس، ادت حركة المقاومة الى انشقاق في الامبراطورية الرومانية بسبب تزعزع نظام الرق .

وقد عرفت مرحلة المقاومة الاولى بسلسلة من حركات التمرد لدى القبائل الرافضة . ولم تتخلَ القبائل عن اراضيها الا بعد مقاومة قاسية واذا كان جميع المؤرخين قد ذكروا تمرد تكفاريناس Tacfarinas الذي استمر سبع سنوات (١٦ ـ ٢٤ ب.م) فهذا لا يعني انه التمرد الوحيد بل على العكس، يدخل ضمن حركات عصيان اخرى قامت بها مجموعات من البربر المنفيين من

قبائلهم .

ولا شك ان هناك بربر اندمجوا مع نظام الرق الروماني الامبراطوري كالملاكين الكبار والتجار الاغنياء الذين ذابوا في الطبقات المديرة للحكم وتبنوا طريقة الحياة والثقافة الرومانية . وقد اعطت هذه الطبقة الارستقراطية الجديدة امبراطورا لروما هو سبتيم سيفير Septime Severe كما اسست بالاضافة الى ذلك قاعدة اجتماعية لتطور الثقافة اللاتينية Fronton, Apulee de Maudavre

لكن هذا كله لا ينبغي أن نفسره على انه اندماج كامل ، فكثير من البربر ظلوا يتكلمون لهجاتهم الخاصة ويدفنون موتاهم على الطريقة المغربية ويمارسون شعائرهم الدينية التي ورثوها عن اجدادهم . وانتشار المسيحية السريع ابتداء من القرن الثاني لا يعني تقدما في اندماج البربر بالرومان بل على العكس ، اعتنق الكثير من البربر الدين الجديد كدين مستقل عن الدولة الرومانية ولأن الرومان اضطهدوا المسيحيين ولان هذا الدين شكل وسيلة تعبير ايديولوجية عن معارضة البربر للاستعمار الروماني .

ابتداء من النصف الثاني للقرن الثالث ، دخل نظام الرق في حالة تأزم ستؤدي فيما بعد الى انهياره وانهيار الامبراطورية . وستدفع الشعوب المحكومة الى التحرك وهذه هي نتيجة التمادي في تطبيق نظام الاستعباد اي نظام التوسع الدائم بغية الحصول على المزيد من الاراضي والمال والعبيد .

هذا التطور انتهى الى النتيجة التالية :

احد اساسات سيطرة الأشراف كان في «ضخ» الذهب والمعادن الثمينة الى الاراضي المحتلة ، وفائدة الذهب تكمن اما في الحفاظ على بذخ الارستقراطية الامبراطورية ـ حيث ان مصدره الشرق ، منبع المنتجات الفاخرة ـ واما في دفع رواتب العسكريين اذ ان الجيش هو اساس النظام الامبراطوري .

وهكذا ، فبتوسع الامبراطورية يتوسع الجيش ويزداد عدد افراده وتزداد اهميتهم وحاجاتهم . ويتوجب على طبقة الاشراف دفع الثمن غاليا لان الجنود هم اداة هذا التوسع . لذا كان على الارستقراطية الساعية وراء استمرار الحكم ان تشتري الخدمة العسكرية من بعض أفراد «الشعب البربري» بالمال او بامتياز الاراضي . **ابتداء من هذا التاريخ تنعكس ديناميكية الرق** . اذ لم يعد التوسع يعطي نفس الارباح بل اقل ، والذهب ينقص والاقتصاد النقدي يتراجع امام الاقتصاد الداخلي والجيش يضطرب يوما بعد يوم فيناصر من الاباطرة من يريد ويناهض من يريد بينما «الافراد البربر» يستعدون للتحرك .

في هذا السياق العام باستطاعتنا أن نفهم الصراعات الكبرى القبلية والاجتماعية والدينية التي سترافق تاريخ المغرب ابتداء من عام ٢٥٠ ب.م.

عرف عام ٢٥٣ بداية عصيان قام به فراكسان **Faraxan** امتد على مساحة كبيرة من الجزائر الحالية واستمر ١٠ سنوات.

عام ٢٨٩ عصيان آخر اشتعل في المغرب الاوسط من وادي الساحل وحتى هدنة **Hodna** مرورا بكبيليه **Kabylie** واستمر ٨ سنوات .

ولم يستطع جيش الرومان البقاء في ليم **Limes** وتقلصت المناطق المحتلة تحت ضربات البربر . وتتميز هذه المرحلة باتساع حركات العصيان وطول مدتها وهو مؤشر تطور سياسي في القبائل . هنا يبدأ تجميد الاستعمار اي عدم السماح له بالامتداد مما يعطي الفرصة لحركات العصيان بالاستمرار مدة اطول وشمول مساحات اوسع . وسهّل ذلك قيام اضطرابات اجتماعية في المناطق الخاضعة مباشرة للرق والتي تعاني الكثير من الحرمان .

هذه الازمة الاقتصادية التي عرفتها الامبراطورية الرومانية

ابتداء من النصف الثاني للقرن الثالث اثرت في قاعدة الاستعمار الروماني : نظام العزب كان يعطي انتاجه للسوق الروماني ، وضعف هذا النظام يؤدي الى انهيار العزب واعتماد تربية الحيوانات بدل الزراعة يعني افقارا سريعا للعاملين في المزارع . نتج عن ذلك ملكيات صغيرة ضائعة ، فلاحون شركاء مطرودون من اراضيهم ، عبيد محرومون ، وكل هؤلاء ثاروا على الملاكين الكبار .

هذه هي حركة «الذين يطوفون حول مستودع الحبوب» ولها ميزة جديدة لان افرادها ليسوا من القوى الاجتماعية التي اعتادت معارضة الاستعمار بل قوى ناتجة عنها بشكل مباشر ، وتمثل حركة مفتوحة تشمل كافة الطبقات وهي الاولى من نوعها في المغرب الاوسط (٦) .

هذا التصاعد الاجتماعي في الصراعات يسجل كتهجم على الامبراطورية الرومانية وانهيار نظام الرق ، وسيظهر على مستوى الايديولوجيات بواسطة «الانشقاق الدوناتي» Schisme Donatiste

ظهرت الدوناتية في البدء كنتيجة صراع ديني بما في الكلمة من معنى . وتطور معناها سريعا بحيث اصبحت تمثل الرغبة في الاستقلال عند البربر .

منذ عام ٣١٣ صارت الكنيسة الكاثوليكية شرعية في الامبراطورية الرومانية ، والاكليروس يمثل النظام الروماني وهكذا حمل الانشقاق الدوناتي معنى سياسي : اداة التدرج الكاثوليكي اي بعبارة اخرى اداة النظام الروماني في المغرب .

وقد شجعت صلابة هذا المبدا وتقشفه «الذين يطوفون حول مستودع الحبوب» على اعتناقه واتخاذه كقاعدة لصراعهم وثورتهم على الملاكين الكبار . واشكال الصراع المختلفة تلاقت حول مبدا مركب يدعمه ازدياد الامل في انهيار الامبراطورية .

في البداية ، كانت الحركات مستقلة واحيانا متعادية وخلال

النصف الاول للقرن الرابع دخلت الدوناتية بين «الدائرين حول مستودع الحبوب» . لكن التدرج الكاثوليكي استمر في الدفاع عن امتيازات الملاكين الكبار وعن مبدا السيطرة الرومانية .

فيما بعد اصبحت الكنيسة الدوناتية تتأرجح على كفة المعارضة القوية ضد النظام القائم وتدير سياسيا وايديولوجيا ، حركة «الدائرين حول مستودع الحبوب» . وكان لهذا العمل معنيان : فهو يظهر قوة ضغط «الدائرين حول مستودع الحبوب» وفي الوقت ذاته يدل على بدء التصدع داخل الطبقات الحاكمة حيث لم يعد «النظام الروماني» ، بنظر الارستقراطية البربرية ، وسيلة للحفاظ على الامتيازات .

واخيرا ، يلتحم القبائل و«الدائرين حول مستودع القمح» والدوناتيون وينطلقون يدا واحدة . عام ٣٧٣ يقوم عصيان قوي بادارة امير قبلي فيرموس Firmus ، وبعد ٢٠ عاما امير بربري آخر هو جيلدون Gildon يترأس عصيانا يقضي عليه هو ايضا .

وتقوم صراعات مماثلة على صعيد الشرق الاوروبي . والشعوب البربرية ، وخاصة الفندال المكلفين بحماية «ليم» ، يترأسون غزو ... الامبراطورية الرومانية .

عام ٤٢٩ تخفق الجبهة الرومانية في المغرب تحت تأثير هجومين متحدين ، ينزل جيش من الفندال على شواطىء المغرب، في الوقت ذاته ، عصيان ثالث يضم اتحادات القبائل ، «الدائرون حول مستودعات الحبوب» والدوناتيون ينطلقون وينهون فترة الاحتلال الروماني .

ملاحظات هامشية

١ ـ لقد كان «اكليد» Aguellid عظيما ، عجن شعبه بيديه القويتين.

٢ ـ تطور تصدير الحبوب الى روما كان على الشكل التالي :

ـ ١٤٠،٠٠٠ كنتالا من القمح و ١٠،٠٠٠ من الشعير عام ٢٠٠ .

ـ ١٤٠،٠٠٠ كنتالا من القمح عام ١٩٨ .

ـ ٥٦٠،٠٠٠ كنتالا من القمح و ٢٨٠،٠٠٠ من الشعير عام ١٩١ .

ـ ٧٠،٠٠٠ كنتالا من القمح عام ١٧٠ .

٣ ـ ابتداء من عام ٤٠ ب.م. اصبحت افريقيا الشمالية تماما وبكل بساطة مستعمرة ، مجموعة مستعمرات اذا صح التعبير وفي هذه اللحظة يختل توازن تاريخ افريقيا الشمالية والجزائر خاصة .

٤ ـ كتاب S. Gselle يشهد لهذا الصراع بين الرغبة في لبرير الاستعمار وبين متطلبات الموضوعية في التحليل التاريخي واذا اكد على ان البربر لم يخلقوا شيئا تقريبا في ميادين الفكر والعلم والشعر والفن والدين ، الا انه مضطر للاعتراف بأننا قد نقول بتقدم نوميديا تحت حكم ملوكها في القرن الثاني وحتى نصف القرن الاول ، اكثر مما تقدمت تحت حكم الجمهورية .

٥ ـ لنذكر مثلا :

ـ الفتنة التي قامت بعد مقتل Ptoie Mee (٢٤ ـ ٤٠) .

ـ فتنة الناسامون Nasamons (٨٥ ـ ٨٦) .

ـ انقلاب موريتانيا (١١٨) .

ـ وانقلاب الموريتانيين ١٢٢ ثم ١٣٩ ـ ١٦٩ .

ـ فتنة الاوراس في عهد سبتيم سيفير (١٩٣ ـ ٢١١) وسيفير الاسكندر ٢٣٥ ـ ٢٢٢ .

٦ ـ كان «الدائرون حول مستودع الحبوب» circocellions يكرهون الاسياد والاغنياء وكانوا اذا راوا سيدا في عربة وحوله عبيده ، أنزلوه وطلبوا من العبيد الصعود الى العربة وأجبروا السيد على الجري على قدميه وكانوا يفاخرون بكونهم جاؤوا لنشر العدالة في الارض ولدعوة العبيد للحرية .

اندماج المغرب الاوسط بالامة الاسلامية

استغرق اندماج المغرب الاوسط الايديولوجي والاقتصادي في لامة الاسلامية اكثر من قرن وكان قائما على اساس نظام سياسي مستقل عن الامبراطوريات المشرقية الاخرى . هناك تاريخان يحددان هذه الحقبة .

ـ ٦٤٣ : وصول وحدات الجيش الاولى العربية الاسلامية الى شاطىء ليبيا الشمالي Tripolitaine .

ـ ٧٦١ : تأسيس «دولة طاهرت» على يد ابن رستم .

ان تحليل هذا الاندماج تطرح ثلاث مسائل اساسية .

١ ـ ما هي طبيعة هذه الامبراطورية الاسلامية وجيوشها تستعد للامتداد للمغرب في اواخر القرن السابع ؟

٢ ـ ما هو وضع المغرب الاوسط بعد اكثر من قرنين من انتهاء الاستعمار الروماني .

٣ ـ كيف تم هذا الاندماج ؟

دستور الامة والامبراطورية في الاسلام

خلال النصف الاول من القرن السابع ، قامت ديانة جديدة في المنطقة العربية : الاسلام . ويعبر هذا الدين عن التغيرات التي حصلت في المجتمع العربي وطورته ، لان الاسلام سيدفع الشعوب العربية للانتقال من نظام القبائل الى نظام الدولة وقريبا ستتحول الدولة الاسلامية العربية الى امبراطورية متعددة العروق تمتد فوق قارات ثلاث .

قبل الاسلام كانت شبه الجزيرة العربية تنقسم الى قسمين: مناطق جنوب شبه الجزيرة حيث عرف نظام اجتماعي من النوع الملكي بينما عرفت المناطق الوسطى والشمالية بنظام القبائل .

وتعتبر صلة القربى مهمة واساسية لدى كل من البـــدو والحضر . المراعي والمواشي ملكية عامة عند البدو لكن ذلك لا يمنع وجود ملكيات خاصة كالعبيد والمال . اما في المدن ، فصلة القربى لم تمنع قيام ارستقراطية تجارية حقيقية كبني هاشم وعبد شمس من قبيلة قريش .

ويرتكز النشاط الاقتصادي على تربية المواشي والزراعة في الواحات وعلى تجارة القوافل الذي ينظمه التجار ، سكان المدن وتحميه قبائل البدو . ومكة هي المركز التجاري الاكثر اهمية لانها تقع عند ملتقى طرق التجارة المتجهة نحو اليمن ومصر وسوريا والعراق .

واذا كان تعدد الآلهة وجه العبادة الرئيسي فوجود اليهودية والمسيحية يدل على استعداد لعبادة اله واحد .

عدا عن هاتين الديانتين كان هناك ميل نحو توحيد الديانات. فمنذ القرن الخامس كانت مكة تحت سيطرة قبيلة قريش التي جعلت من المدينة مركز حج كبير بجمعها آلهة العرب في حرم واحـد .

والاسلام الداعي الى التوحيد شجع هذا الاستعداد في مجتمع الجزيرة العربية .

ولد محمد صلى‌الله عليه وسلم في مدينة مكة عام ٥٦٩ م. وهو من بني هاشم من قريش، بعث نبيا للدين الجديد، لكن العداء الذي نصبته له قبيلته اجبره على ترك مكة مع انصاره والهجرة الى يثرب عام ٦٢٢ . ويعتبر تاريخ الهجرة حاسما لانه يشكل خرقا للنظام الاجتماعي القائم على صلة القربى ونشوء نوع آخر من النظام الاجتماعي .

وقد اعطى الاسلام لرابطة الايمان الديني اهمية اكبر واسمى من رابطة التعصب القبلي ، هذه هي «الامة» ، اساس النظام الاجتماعي .

وقد ذكر في ميثاق المدينة المنورة (يثرب) «ان المؤمنين من قبيلة قريش واهل المدينة المنورة ومن انضم اليهم وحارب الى جانبهم يشكلون رابطة موحدة تميزهم عن بقية الناس فهم يناصرون بعضهم بعضا» .

وابتداء من هذا التاريخ ظهر الاسلام على انه دين جديد وشكل جديد من أشكال النظام الاجتماعي السياسي (١) .

عام ٦٣٢ عاد النبي (ص) منتصرا الى مكة واسلم القرشيون بشكل جماعي. وهذه بداية مرحلة جديدة اذ عرف الدين اعتناقات جماعية لدى القبائل المهزومة اكثر من الاعتناقات الفردية .

واذا كان الاسلام قد اطاح بالعلاقات القبلية ـ وهذا ما ظهر في المدن خاصة ـ الا انه لم يقطعها تماما بل استمرت بين قبائل البدو . ودستور «الامة» المبني على قطع صلة القربى يرتكز ايضا على اساس اشراك جماعات ذات علاقات قبلية في الحكم . لذا فطبيعة «الامة» معقدة ووحدتها اذن متناقضة وهذا التناقض يفسر لنا سبب سرعة انتشار الدين من جهة وبطء امكانية تأسيس دولة اسلامية وضعفها النسبي من جهة ثانية .

بعد موت النبي عام ٦٣٢ كانت اكثر مناطق شبه الجزيرة قد اسلم لكن «الامة» لم يكن لها نظام سياسي بمعنى الكلمة . واذا استطاع النبي محمد (ص) ان يجمع الشعوب العربية حوله وحول القرآن الكريم لكنه لم يضع اساسا لدولة اسلامية . ومع ذلك فالامة لم تتفكك من بعده وهذا يعني مجددا أن رابطة الدين ذات الميول الوحدوية كانت راسخة قوية . ومبايعة الصحابة للخليفة ابي بكر تؤكد على الوجه غير القبلي للدين الاسلامي وتدل على تفوق الارستقراطية المدنية ـ والتي كان منها الكثير من الصحابة ـ على البدو الذين لم يتمعوا لمبايعة ابي بكر .

وهكذا نشأت قوات متنابذة مصدرها قبائل ذات سلطة سياسية رفضت الاعتراف بتيار سياسي تشكل دونها .

ومنذ هذا التاريخ بدا انتشار الدين الاسلامي ولولا ذلك لاختفت «امة» مبنية على التناقض وسيقف المسلمون صفا واحدا امام غير المسلمين وستوزع الواجبات بين الارستقراطية التاجرة وقبائل البدو : ادارة «الامة» للاولى والدفاع عن «الامة» وتوسيعها للثانية .

وقد بدا انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية بعد وفاة النبي . وخلال عشرة اعوام فتحت الجيوش العربية العراق وسوريا ومصر وهذه السرعة في توسع انتشار الدين الاسلامي تعود الى ثلاثة اسباب رئيسية :

ـ كانت فارس وبيزنطة في طور الانحطاط يوم قدمت اليها الجيوش العربية .

ـ ازدواجية تكوين «الامة» (الوحدة الدينية والوحدة القبلية) اعطت الجيش العربي قدرة هائلة . فبينما كانت جيوش الفرس (والبيزنطيين والروم) مؤلفة من المرتزقة كان الالتحام الديني يجمع الجيوش العربية .

ـ ظهور الفتح العربي في المناطق التي احتلها الفرس

والبيزنطيين على انه تحرير للشعوب وقد أبدى العرب ـ سواء على الصعيد الديني او المالي ـ تساهلا كبيرا يتناقض مع التصرفات التعسفية لدى حكام الفرس والروم .

هذا التوسع المستمر اوجب ايجاد دولة اسلامية قادرة على ادارة هذه الامبراطورية كما توجب تنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين من جهة وبين المسلمين انفسهم من جهة ثانية ، وبعبارة اخرى ، وضع جهاز للدولة بدل تنظيم «الامة» ذي الشكل المبهم .

وقد عزل كبار الفرس والبيزنطيين عن ملكياتهم في المناطق المفتوحة واجبر السكان الذين لم يعتنقوا الاسلام على دفع الجزية والخراج . وبشكل عام كان للمسلمين امتيازات لم يتمتع بها غير المسلمين : فهم لا يدفعون سوى ضريبة صغيرة هي الزكاة .

والمسألة الاساسية المطروحة داخل «الامة» هي مسألة توزيع غنائم الحرب . لما كان الخلفاء الاولون يشجعون نشوء طبقة ملاكين فقد وزعوا الاراضي المنزوعة عن الروم والفرس على المقربين اليهم وهكذا نشأت فوارق جديدة داخل «الامة» الى جانب النظام القبلي مما سيؤثر على بنية الجيش .

وقد أقر تنظيم الدولة الذي جاء به معاوية ، مؤسس الدولة الاموية ، هذا التحول الجديد الذي بدأ يظهر داخل «الامة» . فتأسست ادارة مركزية وقسمت الامبراطورية الى ولايات يولى عليها حكام يعينهم الخليفة . واصبحت دمشق عاصمة الادارة المركزية وعاصمة الامبراطورية وموظفو هذه الادارة يعينون من الطبقة الارستقراطية المتاجرة واصحاب الاملاك . واذا كانت مركزية الجهاز الاداري تدل على ازدياد اهمية الطبقات فان سلطة الدولة تدل على استمرار العصبية القبلية داخل الدولة نفسها ، وقد اشرك معاوية رؤساء القبائل في اعطاء القرارات السياسية مما يدل على اشتراكها في الحكم وفي تنظيم الجيش .

وولادة دولة اسلامية دون التخلي عن العلاقات القبلية يدل على توازن غير مستقر بين الارستقراطية المتاجرة والملاكة من جهة وبين قبائل البدو من جهة ثانية ، بين فئات اجتماعية تستفيد اكثر فأكثر من الفتوحات وبين «المتروكين تحت الحساب» . هذه التناقضات ستؤدي الى قيام نزعات متنابذة في «الامة» وستتمثل هذه النزعات بشكل انشقاقات دينية .

لكن استمرار التوسع جعل هذه التناقضات تظهر غير قوية؛ فقد حافظت الحروب المستمرة على تلاحم الامة سواء على الصعيد الايديولوجي (الجهاد المقدس يشغل تفكير المسلم عن الصراعات الاخرى) او على الصعيد السياسي (فبالحرب يظهر تقسيم الواجبات بين ارستقراطية المدن وبين القبائل تقسيما واضحا وملتحما) ، أو على الصعيد الاجتماعي (ازدياد غنائم الفتح تسمح بتخفيف حدة التناقضات الاجتماعية) .

ومجموعة التناقضات المحجمة هذه ستعطي الجيوش العربية دافعا هائلا لفتح الهند واسبانيا ... مرورا بالمغرب .

المغرب الاوسط في نهاية القرن السابع

كيف كان الوضع في المغرب الاوسط حين بلغ جنود العرب والمسلمين شواطىء افريقيا الشمالية ؟

للوهلة الاولى نلاحظ ان سقوط الامبراطورية الرومانية لم يغير الوضع بصورة واضحة في بلاد المغرب ، فبعد الاحتلال الروماني جاء احتلال الفندال (٤٢٩ ــ ٥٣٣) ثم احتلال البيزنطيين (٥٣٣ ــ ٦٤٩) . لكن المناطق التي سيطر عليها المحتلون الجدد كانت تتضاءل بشكل غريب بسبب ازدياد عدد السكان البربر والمنطقة الوحيدة التي استطاع الفندال والبيزنطيون السيطرة

عليها تماما هي **شمال شرق المغرب** ، ومملكة الفندال كافريقيا البيزنطية مركزها قرطاجة . وكل توسع نحو الغرب كانت توقفه اتحادات القبائل المقيمة في «الاوراس» اما بقية بلاد المغرب فقد كانت حرة ما عدا بعض المدن الساحلية والحصون .

و«غزو» البربر لاستعادة بلادهم تم انطلاقا من نقطتي ارتكاز هامتين ، الجبال والسهول العليا في المغرب الاوسط من جهة والصحراء من جهة ثانية . والسكان الذين انحسروا نحو الجبال نزلوا الى السهول واتحدوا بالفئات الاجتماعية المزارعة والثائرة ضد اصحاب الاملاك . والقبائل التي انحسرت نحو الصحراء واصبحت رحلا ابان الاستعمار الروماني ، صعدت نحو التل وجعلت الفندال والبيزنطيين ينحسرون بدورهم نحو الشمال .

وغزو البربر هذا كان تعبيرا سياسيا عن انهيار التنظيم الاجتماعي الاقتصادي الذي فرضته الامبراطورية الرومانية ، وهو مرتبط بذوبان طرق الانتاج عن طريق الاستعباد . هذا الذوبان عرفته كافة الشعوب التي حكمها الرومان وقد ادى الى تجزئة الحياة الاجتماعية في اطار وحدة اقتصادية وسياسية ذات نطاق ضيق .

اما في اوروبا الغربية فقد انتهى ذوبان طرق الانتاج عن طريق الاستعباد بنشوء النظام الاقطاعي ، واصبحت الاقطاعة والولاية وحدة المجتمع الاساسية (٢) . وهكذا بدأ تطبيق مشروع التحول من نظام الرق الى النظام الاقطاعي في المغرب : وفعلا كان الفلاحون المشاركون يزرعون الاراضي البيزنطية الكبيرة بموجب قانون مشابه للاستعباد وهذا التحول سيبقى هامشيا .

ولم يبلغ الاستعمار الروماني النظام القبلي بل اجله تاجيلا .

وغزو البربر لاستعادة المغرب لم يكن له معنى سياسي فقط بل اجتماعي أيضا اذ عادت الروابط القبلية لتكون في مقدمة الروابط الاجتماعية . ولا يمكننا أن نفسر تقدم الروابط القبلية

على الروابط الطبقية التي اوجدها الاستعمار ، على انه عودة الى الوراء بل انه يشكل جوابا محددا تاريخيا بالنسبة لقضيـــة المغرب .

اما بالنسبة للعبيد ، الفلاحين المشاركين والملاكين الصغـار فان اعادة تشكيل القبائل او الاندماج بالقبائل الموجودة يعني جوابا للفوضى التي رافقت انهيار العِزَب . وقياسا على ذلك فالقبيلة في المغرب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاقطاعة في روما .

وعودة الروابط القبلية هذا ليس كارثة . وقد ادين «غوتييه» Gautier بسبب هذه النقطة من قبل عدد من المؤرخين . وكان قد أكد على اهمال المدن الرومانية وخرابها بسبب اجتيـــاح البروليتاريين القدامى المجتمعين على شكل قبائل . والحقيقة ان خراب المدن الرومانية ليس جديدا في المغرب ، فقد عرفته اوروبا الغربية ايضا . ويفسر هذا الاهمال في اوروبا كما في المغرب على انه ردة فعل النشاط الاقتصادي والسياسي على مستوى الاقطاعة او القبيلة .

وتقدم الروابط القبلية على الروابط الاجتماعية لم يكن واحدا في الشكل ولا في المحتوى والنظام القبلي ابان الاستعمار الروماني لم يكن نفسه في عهد ماسينيسا Massinissa ، كذلك اتخذ شكلا ومحتوى جديدين ابان غزو البربر لاستعادة المغرب ، ثـم يظهر نموذج جديد (٢) : النموذج العائلي الناتــج عن الاعتراف بملكية الاقدمين واندماج الملكيات الصغيرة . هنا تمتزج الروابط القبلية وروابط الجوار اما الملكية الخاصة فانها تبقى ولو أنهـا اتخذت طابع المشاع .

ونماذج الممالك ، كنماذج بدو الصحراء الرحل ، تختلف ايضا بفعل مرورها من مرحلة الكبت أو المنع الى مرحلة المهاجمة . واذا كنا نعرف القليل عن نظام القبائل الاقتصادي فالتطورات التـي حصلت في سياسة المغرب الاوسط اثرت على بنية هذه القبائل.

وغزو البربر الجديد كان هدفه تحقيق نظام سياسي لما « فوق القبيلة » .

واول شيء يلفت النظر في هذا «السير نحو الدولة» هو مظهرها المجزا .. واذا وصفنا خارطة الممالك البربرية في المغرب الاوسط في القرن السادس فان «قدّاش» Kaddache تعد حوالي سبع ممالك تمتد من الغرب الى الشرق (مملكة الطاوة Altava ، مملكة جدار Djeddar في الاوراسينس Ouarsenis مملكة هُدنه Hodna ، مملكة الاوراس Aures ، مملكة نومنتشا Nomentcha ، مملكة الدورسال Dorsale ، ومملكة كابسوس Capsus) .

هذا السير نحو الدولة ليس مجرد عودة لتجربة كل من ماسينيسا وجوكورتا بل ان المحاولة الجديدة تدور في ظروف تاريخية مختلفة بفعل ما عرفته البلاد من استعمار روماني وتطور مركب في البنية الاجتماعية القبلية .

وشكل النظام ما فوق القبلي تميز بطابع عدم التجانس . اذ ان معظم هذه «الممالك» بدت في الحقيقة على شكل اتحادات مؤقتة ذات علاقات جد ضعيفة .

هناك ثلاثة مواضع نشهد فيها بزوغ سلطة دولة ما فوق قبلية : مملكة الطاوة في الغرب الوهراني المكونة من قبائل جبلية وشعوب بربرية رومانية في السهول ، ومملكة جدار ، المعروفة بآثارها العمرانية واخيرا مملكة الاوراس حيث عرفت تقاليد النظام ما فوق القبلي .

هذه الممالك الثلاث تشكل ثلاث نقاط قوية ستكون منطلقا لحركة توحيد المغرب الاوسط . ويبدو ان هذه الحركة ولدت عشية قدوم جنود العرب والمسلمين ونستند في ذلك على امرين: الاول ، اذا حصلت المعارك الحاسمة بين البربر والمسلمين في الاوراس فانها امتدت حتى المولويا ؛ و«ابن الاظهري» يدعونا

للاعتقاد فضلا عن ذلك بأن «الكاهنة» كانت تمارس سلطة على الاقل معنوية على غالبية بلاد المغرب «بعد تمضية بضعة ايام الراحة في القيروان ، سأل حسن بن نعمان الاهالي **عمن يكون اكثر الامراء سيطرة في تونس وشرق الجزائر (افريقيا)** بغية كسر شوكته او اجباره على الاسلام ، فقيل له ان امراة تدعى الكاهنة ، تسكن الاوراس يخشاها روم افريقيا **ويطيعها كل البربر** ، وأن قتلتها اخضعت كافة انحاء المغرب دون منافس او مقاوم » .

هكذا كان وضع المغرب ، مستقل في غالبيته ، غني بالانظمة القبلية ، ومستعد لبناء نظام ما فوق القبلي ولو بأشكال متباينة تدل على الفروقات الاجتماعية ، هذا هو المغرب الذي سيفتحه العرب المسلمون خلال النصف الثاني للقرن السابع .

مراحل الاندماج

لم يعرف العرب صعوبة تذكر في فتوحاتهم للشرق الاوسط، لكن دخولهم العسكري في المغرب لقي مقاومة عنيفة من الشعب البربري . واذا بدا المغرب خاضعا بعد موت الكاهنة عام ٧٠٢ فان تمرد الخوارج الذي اشتعل عام ٧٤٠ يدل على أن المغرب ، خاصة المغرب الاوسط رفض الاندماج بالامة الاسلامية أن لم يكن ذلك على اساس استقلاله السياسي . وما بين نزول طلائع الجيش العربي على شاطىء ليبيا الشمالي وهزيمة جيوش «ألكاهنة» البربرية التي فتحت طريق المغرب الغربي ، يمر نصف قرن .

بدأ الدخول الى المغرب بشكل بطيء وبواسطة فتوحات متتالية ضد «افريقيا» (تونس وشرق الجزائر) ، دمرت بقايا القوة البيزنطية ، ولم يثبت العرب اقدامهم الا عام ٦٧٠ . وقد اسس

«عقبة بن نافع» مدينة القيروان التي ستكون قاعدة انطلاقه نحو المغرب الاوسط .

عام ٦٨١ جهز «عقبة» اول هجوم لما وراء الاوراس ، وصل الى تلمسان وربما الى المحيط الاطلسي . لكن في طريق العودة كانت قبائل الاوراس قد اتحدت بقيـــادة قصيلة Koseila وسحقت جيش «عقبة» في بسكرة Beskra عام ٦٨٣ وقد قتل «عقبة» في المعركة . ومشى قصيلة الى القيروان واحتلها . وصار رئيس «افريقيا» (تونس وشرق الجزائر) والمغرب الاوسط لمدة ثلاثة اعوام .

عام ٦٨٦ حصل هجوم مضاد قاده «زهير» ادى الى مقتـــل قصيلة لكن دون احتلال البلاد وقد قتل «زهير» اثناء انسحابه على الشاطىء .

بعد عامين قام «حسن» حاكم مصر بهجوم اخر ضد قبائـــل الاوراس التابعة للكاهنة . عام ٦٩٧ ، هزم «حسن» هزيمة نكراء في معركة المسكيانت شمال الاوراس ، وجيوش الكاهنة دفعت بجيش حسن حتى شاطىء ليبيا الشمالي وحكمت البلاد مـــدة خمسة اعوام .

عام ٧٠٢ حصل الحسم : ضربت جيوش حسن قبائل البربر وقتلت الكاهنة . وبعد خمسة اعوام وصل جيش المسلمين حتى شاطىء الاطلسي .

اذن فقد توطن الاسلام في المغرب خلال نصف قرن ، واعتنق البربر الدين الجديد جماعات وقبلوا الاندماج بالامة الاسلامية بل واصبحوا القوة الاساسية للتوسع الاسلامي نحو الغرب المسيحي .

عام ٧١١ انطلق حاكم طنجة «طارق بن زياد» بسفنه نحـــو اسبانيا ومعه ، حسب مؤرخي العصر ، ١٢،٠٠٠ بربري و٢٧ عربيا فقط . ومنذ هذا التاريخ اصبح المغرب ضمن حركـــة الحضارة الاسلامية . ذلك لم يمنع المطالبة بالاستقلال لكن داخل اطـــار

الاسلام . وبالفعل ، بعد ثلاثين عاما من الدخول العسكري ، قام انقلاب في المغرب الاوسط عام ٧٤٠ : ثورة الخوارج ، وسببه الرئيسي طريقة حكم الارستقراطية الاموية في المغرب اذ لم يترك للمنطقة أي نوع من الحكم الذاتي ، والحاكم كان مركزه القيروان ويختار من بين اعضاء الارستقراطية الحاكمة في دمشق وكان الشعب المغربي ، وغالبيته من المسلمين ، ملزما بدفع الخراج والجزية ، ضريبتين لا يتوجب دفعهما الا على غير المسلمين .

هذا التصاعد في الصراعات ضد أدارة الامويين التعسفية سيعبر عنه على المستوى الديني ، انشقاق جماعة ستعرف بالخوارج .

ظهرت «الخوارج» بادىء ذي بدء على انها نتيجة صراع على الحكم يقول بانتقال الخلافة بالوراثة . فقد تصارع كل من علي بن ابي طالب ، صهر الرسول (ص) ومنافسه معاوية بن ابي سفيان على الخلافة عام ٦٥٦ . وبدل ان يقاتل علي ليحافظ على خلافته، قبل مبدأ التحكيم ، عندها تخلى عنه جماعة من صحبه هم الخوارج . هذا الانشقاق الذي بدأ في المشرق انتقل سريعا الى المغرب حيث وجد فيه المغاربة وسيلتهم لطلب الاستقلال وادانة شرعية الحكم الاموي ، وذلك لان «الخوارج» مثلت مفهوما اسلاميا انضوت تحت لوائه مطالب الثوار السياسية والاجتماعية .

و«الخوارج» تقول بأن كل خليفة ترك «الصراط المستقيم» يجب ان يعزل وان كل مؤمن «وان كان عبدا اسود» يمكن ان يبايع خليفة للمسلمين . هذا المبدا كان سلاحا سياسيا في يد المغاربة الثائرين . واعطاء الاسلام طابع المساواة والحزم وشظف العيش جعل الثوار يعبرون عن كرههم للحكام وطرد الارستقراطية الاموية الغنية من «الامة» .

بدات الحركة في الغرب ، في طنجة بقيادة ساق اسمه ميسرة Maisara ، وامتدت بسرعة نحو الشرق . وقد تغلب

المتمردون مرتين على القوات الاموية ووصلوا حتى القيروان ، مرة في شليف Chelif عام ٧٤٠ واخرى في سيبو Sebou عام ٧٤٢ لكن هجوما معاكسا اوقف زحف الخوارج (معركة القرن) وارجعهم نحو الغرب (معركة الاصنام) .

وثورات الخوارج هذه ستسهل لها اضطرابات تقع في المشرق ، في نهاية حكم السلالة الاموية في دمشق عام ٧٥٠ وبداية حكم السلالة العباسية في بغداد .

في شرق بلاد المغرب اي تونس وشرق الجزائر ، استمرت الثورة بشكل اضطرابات واصبحت القيروان محور تباور الصراعات اذ انها احتلت واعيد احتلالها اكثر من مرة على يد عدة قادة ؛ ثم انه بالاضافة الى قتال الخوارج مع الجيوش الاموية نشأت صراعات بين مختلف الفرق داخل «الخوارج» نفسها .

في المغرب الاوسط على عكس ذلك ، استفاد الخوارج من «فراغ السلطة» لتقوية مراكزهم وانبثق عن ذلك دويلات جديدة.

عام ٧٦١ أسس ابن رستم امامة «طاهرت» وفي الوقت ذاته اسس ابو قرة ، رئيس قبيلة عفران ، دويلة حول حدود تلمسان .

عام ٧٧١ كان حكم العباسيين قد استتب فأرسل العباسيون غزوة لقهر الخوارج بقيادة «يزيد» الذي قضى على الحركة في تونس وشرق الجزائر لكنه اخفق في السيطرة على بقية بلاد المغرب .

عام ٧٨٧ عرض ابن رستم الصلح على يزيد فقبل ، وهكذا يكون المغرب الاوسط قد حصل على الاعتراف باستقلاله داخل الامة الاسلامية .

كيف نفسر هذه الصراعات التي ، خلال قرن من الزمن ، جعلت شعب المغرب وخاصة شعب المغرب الاوسط ، يقاتل الجيوش التي ارسلها الامويون ثم العباسيون ؟

تفسيران اثنان اعطاهما المؤرخون المؤيدون للاستعمار . الاول ان لصراع المغاربة اساس ديني : رفض البربر الاسلام الذي فرض عليهم بالقوة ، والثاني ان لصراع المغاربة اساس عرقي : مواجهة دائمة بين العرب والبربر .

التفسير الاول لا يصمد عند الامتحان : اذا كان البربر يتصدون بالقوة لدخول الامويين والعباسيين العسكري فان ذلك يتوافق مع الاسلام ، وان اول بطل في المقاومة المغربية «قصيلة» كان قد اعتنق الاسلام او على الاقل ايده قبل ان يترأس الجيش في قتال «عقبة» . وبدل ان يعارض الاسلام ، كان الشعب المغربي من الدعاة له . والجيوش التي حملت الجهاد الى اوروبا وخاصة اسبانيا كانت مؤلفة في غالبيتها من البربر الحديثي العهد بالاسلام واخيرا الثورة الكبرى للخوارج التي هزت المغرب في النصف الثاني للقرن الثامن ، مع انها تعبر عن رغبة استقلال المغرب الا انها سمحت للدين الاسلامي بالانتشار فوق كافة اراضي المغرب .

والتفسير الثاني ليس له هو الاخر اساس جدي ، فالجيوش العربية وشعوب المغرب الاوسط كان لهما نظام اجتماعي مشترك: النظام القبلي المبني على اساس صلة القربى . والعلاقات بين قبائل العرب وقبائل البربر لم تكن علاقات قتال فحسب بل ايضا علاقات اتحاد وتبادل ، وهناك بعض حلقات قتال غير مفهومة اذا لم تكن ضمن السياق التاريخي الذي ذكرناه مثلا : بعد معركة مسكيانة التي انهزم فيها جيش «حسن» ، تبنت الكاهنة احد الاسرى وجعلته اخ رضاعة لولديها . وقبيل المعركة التي قتلت فيها ـ وهي الاخيرة ـ طلبت الكاهنة من ولديها الدخول في صفوف «حسن» ، وهذا الاخير ايضا ، بعد انتصاره ، اعطى ابن الكاهنة الاكبر ، حكم الاوراس .

كيف نفهم اذن هذا القرن من الصراعات ؟ هذا القرن من الصراعات هو اولا استمرار الصراع النوميدي الكبير للحصول على الاستقلال .

أن وضع المغرب الاوسط ، ابان توسع امتداد العرب باتجاهه، مختلف تماما عن الوضع في مصر والعراق وسوريا . فالشعوب البربرية تحررت منذ وقت بعيد من الاستعمار الروماني ، ومحاولات الفندال او البيزنطيين لاعادة الاحتلال لم تتعدى بعض المناطق الساحلية الشمالية ؛ اذن فالعرب سيواجهون شعوبا تغار على استقلالها ، تتجمع في اطار اتحادات قبائل او ممالك لها بنيتها ، وهي ايضا شعوب رعاة في غالبيتها ، بارعة في فن الحرب .

هذا القرن هو ايضا قرن اعتناق الشعوب البربرية الدين جديد وتمثل الحضارة الاسلامية في ابهى نهضة .

وسيلعب الاسلام في المغرب دورا مماثلا للذي لعبه في الجزيرة العربية ، ويحث المغرب على الاسراع في تأسيس نظام سياسي يتعدى الاطار القبلي . واذا كان الاسلام قد انتشر بسرعة وبكثافة بين المغاربة فذلك يعني ان الاسلام ليس دينا سهلا وعادلا فحسب بل لانه اداة تطور اقتصادي واجتماعي في المغرب بالاضافة الى كون هذا الدين داعيا للوحدة السياسية .

ومعنى انه قرن صراعات معنى مزدوج : المغرب وخاصة الاوسط خرج من هذه الصراعات منتصرا ، فقد حافظ على استقلاله ، لكن هذا النصر ليس نفيا للحضارة الاسلامية وعلى العكس تماما فبتحوله الجذري واعتناقه الاسلام واستيعابه للحضارة الاسلامية ، استطاع المغرب ان يحافظ على استقلاله وفي الوقت ذاته ، اندماجه ضمن الامة الاسلامية حيث سيلعب دورا هاما .

اشكال الاندماج

ابتداء من عام ٧٨٧ ، مبدأ اندماج المغرب الاوسط بالامـة الاسلامية داخل اطار استقلاله اصبح بحكم المنتهي . ومنذ هذا التاريخ اصبح تطور المغرب الاوسط غير منفصل عن التحرك العام في العالم الاسلامي على كافة مستويات الحياة الاجتماعية .

وبسرعة كبيرة اندمج المغرب في الحياة الثقافية والدينية في الامة الاسلامية وساهم بنشاط في كافة الحركات . على الصعيد الديني ، عايش المغرب وخاصة الاوسط انتشار الاسلام وقضاياه بصورة فعالة ، فهو منطلَق التوسع الاسلامي نحو اسبانيا . ومعظم الصراعات الدينية التي اشتعلت في المشرق وجدت صداها في المغرب كالخوارج والشيعة والفاطميين .

على الصعيد الثقافي ، كان تاثير الحضارة العربية الاسلامية واضحا ، وحركة التعريب ، وان كانت ابطا من حركة الاسلمة ، ستغزو تدريجيا المدن ثم السهول واخيرا الجبال ، هذا وان بقيت اللغة المحكية اللغة البربرية خاصة في المغرب العربي الا ان الثقافة المكتوبة كانت بالعربية ، والحياة العلمية والفنية في المغـرب الاوسط لا تنفصل عن بعضها البعض وهي مزيج من الانتـاج الشرق ـ أوسطي والاندلسي . ومع ان المغرب يشغل جزءا من المساحة الفكرية العربية الاسلامية الا أن له منزلة اساسية .

على الصعيد الديني ، الاسلام في المغرب معروف بطهريته ، ومظهره القاسي والمتقشف ، وقد اعتنق المغاربة اولا المفاهيـم الاكثر قساوة في الاسلام كالخوارج والشيعة ثم ، بعد اتصاله بالسنة ، اصبحت المالكية ، اكثر المذاهب صلابة ، مذهب الغالبية المغربية . وهناك ميزة اخرى للاسلام في المغرب هي اهميـة واجلال الاولياء المحليين : المرابطون .

على الصعيد الثقافي ايضا ، كان المغرب تقاطع طرق هـام

ظهرت عنده التأثيرات الشرق اوسطية والاندلسية كما اهــدى بدوره آثارا هامة للتراث العربي الاسلامي خلال هذه الحقبة .

وعلى الصعيد الفلسفي عرف لكل من ابن طفيل وابن رشد تأثير عالمي كذلك شأن ابن خلدون على صعيد العلم آلتاريخي .

اما من جهة الحياة الاقتصادية فان المغرب سيندمج فــي التكوين الاقتصادي العام في الامة الاسلامية وسيبقى محافظا على مميزاته الخاصة التي ستكون في الوقت ذاته سبب عظمتــه وضعفه . واقتصاده يدخل ضمن دائرة النشاط الاسلامية وحركة هذا الاقتصاد مرتبطة بحركة العالم الاسلامي . وموقعه الجغرافي يؤهله ليكون نقطة تقاطع تجارية ، اذ يلتقي عنده الشرق الاوسط والشرق المسلم بأفريقيا السوداء والغرب المسلم وما وراء الغرب المسيحي .

هذه الاهمية التجارية ادت الى نمو في الاقتصاد المالي وفي دور المدن على صعيد التجارة والحرف . ومدن المغرب التجارية كانت : فاس ، طاهرت ، بيجاية ، القلعة ، قسطنطينة وتونس. واهميتها لم تكن للمغرب فحسب بل كان اهلها يعيشون مــن حركة التنقلات العالمية عن طريق القوافل او البحر .

وقد ادى دخول اقتصاد المغرب ضمن حركة الاقتصــاد الاسلامي الى احداث تطور في البنية الاجتماعية تأثر جزئيا ببنية الشرق الاوسط . وتشكلت في المدن طبقة كبيرة من التجــار المرتبطين بتجار العالم العربي باللغة والدين واصول التجــارة (كالكمبيالات والشيكات) كذلك تشكلت مجموعات مــن الحرفيين والعديد من العاملين غير المختصين (كالخدم واصحاب المهــن الصغيرة) ، اما في الريف فقد تشكلت ملكية خاصة للاراضــي المحيطة بالمدن .

وان عايش المغرب الاوسط الاقتصاد الاسلامي فقد كانت له مكانته الخاصة في الوقت ذاته . وظهر ذلك واضحا في التنافس

الاقتصادي بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي. وهذه المنافسة، وان كانت عنيفة، لم تمنع حصول التبادل الاقتصادي واصبح المغرب في القرون الوسطى أحد مراكز هذا التبادل. من هنا جاءت ثروات المدن كمدينة بيجاية، احد المراكز التجارية في حوض المتوسط.

وكان المغرب على مستوى هذه المكانة. خلال اربعة قرون كان المغاربة يراقبون تسيير ذهب السودان وتوزيعه ودور المغرب هنا كدور «الرئة» بالنسبة للتجارة الاسلامية، والى حد ما، بالنسبة للتجارة المسيحية.

وقوة المغرب الاقتصادية في القرون الوسطى تكمن في سيطرته على اهم الطرق التجارية الا وهي طريق الذهب، اكثر مما تكمن في الانتاج الحرفي والزراعي.

ومكانته المتفوقة كانت ايضا سبب ضعفه. ففي القرن الرابع عشر طرات تحولات كثيرة على تسيير ذهب السودان. اذ استطاعت مصر اقامة علاقة مباشرة مع ممالك السودان، وحاول الاوروبيون من جانبهم الوصول مباشرة الى مناطق الذهب عن طريق المحيط الاطلسي. هنا شهد المغرب ضعف اهميته كوسيط وبطء الحركة التجارية سواء عن طريق القوافل او البحر، لذا عرف المغرب ازمة اقتصادية واجتماعية كبيرة.

ومع ان المغرب حافظ على استقلاله لكنه لم يكن غريبا عن الحياة السياسية في الامة الاسلامية. ونؤكد هنا على ان رفض المغرب لسيطرة الخليفة الاموي لم يكن غريبا الا لوقت قصير، وبعد ذلك اي في العصر العباسي، أنبثقت عن الامبراطورية الاسلامية عدة دويلات واهم مراكز ثقلها قرطبة، دمشق، بغداد والقاهرة. وحياة المغرب الاقتصادية تدخل في قالب النظام السياسي للامة الاسلامية.

وككل بلاد الاسلام في ذلك الوقت عرف النظام السياسي في

المغرب اختلاط السلطة السياسية بالسلطة الدينية . والزعيم السياسي هو ايضا الزعيم الديني .

وبالرغم من استقلالها خضعت دويلات المغرب الاوسط للتقلبات الناتجة عن صراع الاسلام في الغرب (قرطبة) مع الاسلام في الشرق وعن صراع الدول المختلفة في اسلام الشرق نفسه .

والحياة السياسية في دويلات المغرب لا يمكن فهمها الا اذا اخذنا بعين الاعتبار العلاقات التي تجمعها بقرطبة ، دمشق بغداد او القاهرة وتربطها بها .

وقد كان المغرب جزءا مكملا ومساعدا للعالم الاسلامي في مواجهة الغرب المسيحي . والقرن الثامن هو قرن الانتصار في اسبانيا . هذا الانتصار الذي كان معظم ابطاله من المغاربة .

القرن الثاني عشر هو قرن الحروب الصليبية في فلسطين وهو كذلك قرن الغارات البحرية ضد مرافيء المغرب الكبرى .

وللمغرب وخاصة الاوسط مظاهر خاصة على صعيد نظامه ودوره السياسي في العالم العربي الاسلامي . وان كان النظام المغربي قد تأثر بكافة الانظمة الاسلامية الاخرى ، ألا ان له ايضا ملامحه الخاصة كاهمية الدور السياسي الذي تلعبه القبائل ومحافظتها على بنيتها الاجتماعية لما قبل الاسلام دون التأثر بالحملات العسكرية ولدورها ايضا في تسيير القوافل التجارية.

ولا نستطيع فهم ولادة او تقلبات الدويلات المغربية بمعزل عن علاقاتها بالنظام القبلي . وسياسة المغرب لم تكن على صعيد المنطقة فحسب بل اتخذت ابعادا ذات تأثير قوي على العالم الاسلامي في اكثر من مناسبة . وفي القرن العاشر ساهمت قبيلة قتامة Ketama في تأسيس الدولة الفاطمية في مصر .

في القرن الثاني عشر حاول «المرابطون» ومن بعدهم «الموحدون» تأسيس دولة اسلامية في الغرب تضم المغرب واسبانيا .

وهكذا ، اذا كان المغرب جزءا مكملا ساعد العالم الاسلامي على مواجهة الغرب المسيحي فذلك لم يمنعه من تبوء مكانة خاصة . وقربه من قواعد الهجوم المسيحية اعطاه حساسية لم تكن لدى بقية مناطق العالم الاسلامي . وعلى مدى العصور التي تنافس فيها الشرق والغرب كان المغرب مركزا مسلحا متقدما كما كان في الوقت ذاته دولة حاجزة بين المنطقتين .

واذا استطاع الاسلام في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، سحق بقية جحافل الصليبيين في الشرق وحتى الوصول الى القسطنطينية في الغرب ، فان المسيحية سجلت ايضا انتصارات: استرداد اسبانيا ، زيادة عدد الغارات ضد المغرب ، وبداية الاحتلال والسيطرة السياسية .

هوامش

اندماج المغرب الاوسط بالامة الاسلامية

١ ـ «كان لدى هذه المجموعة نزعة نحو تأليف وحدة Communauté او مجتمع منفصل ، شامل ومتكامل بحد ذاته . لا يخضع الا لقوانينه الذاتية ؛ وقد اصبحت امكانية هذا الحدث واقعا عندما ابتدأت المجموعة بالانسحاب دفعة واحدة من مدينتها الاصلية لتستقر في المدينة الخصم حيث ستشكل ـ بمساعدة الموالين المحليين ـ وحدة ذات طبيعة مختلفة تماما» .

٢ ـ «لم تكن الاملاك وحدة استثمار موزعة بين أرض محجوزة للسكان واقطاعات ممنوحة وحسب ، بل كانت تخص مجتمعا تابعا للسيد ، مؤسسة اقطاعية يحكمها السيد ، لها ادارتها وعرفها الخاص . والسيد هو اكثر من صاحب عمل يدير موظفيه وأكثر من ملاك يجني ثمار ارضه ويقبض ايجار مزارعه وأراضيه . انه رئيس ينحني امام اناسه وتربطه بهم علاقات شخصية تتشابك مع تبعية الارض .

٣ ـ يميز Laron ثلاثة انواع للنماذج القبليــة في ذلك العصر . «النموذج العائلي للقبيلة ، نموذج المالك ونموذج بدو الصحراء الرحل وجميع هذه النماذج تؤدي نفس الخدمات للوحدات المستعينة بها ، لكن ليس من العدل ان نمزجها في تعبير واحد اى «بنية قبلية» .

تعاقب التشكيلات المجتمعية في المغرب

بلغت مدة هذه الحقبة حوالي ثمانية قرون (٧٦١ – ١٥٤٣) عرف خلالها المغرب الاوسط تشكيل ممالـــــك او اندماجـــــا بأمبراطوريات اخرى، تعدت احيانا نطاق المغرب العربي .

هذه الحقبة التاريخية صعبة الدراسة نسبيا، عدا التحديدات التضافرية Sur Determinations الايديولوجية للنقد التاريخي التي تكلم عنها المستعمرون وبعض الفرضيات الراهنة، فالصعوبة تأتي من ان هذه الدويلات لم تغير التقسيمات السياسية الحالية بل غالبا ما كانت تداخل حدود دول المغرب المعاصرة ببعضهـــا البعض . وتأتي الصعوبة ايضا من اختلاف طبيعة هذه الدويلات عن طبيعة الدول الحديثة، اضف الى ذلك انه خلال هذه الفترة، حافظ المغرب على اصالته وان تكوين وتطور هذه الدويلات تـم بشكل متلاحم .

نستطيع ان نميز ثلاثة محاور (اقطاب Poles) عريضـــة للدويلات التي تعاقبت في المغرب الاوسط : اولا في الوســـط،

ثم في الشرق واخيرا في الغرب .

١ ـ محور الوسط : امامة طاهرت الرستمية (٧٦١ ـ ٩١١) :

ولدت هذه الدويلة بعد ثورة قبائل البربر التي ناصرت الخوارج. مؤسسها خارجي من اصل فارسي اسمه عبد الرحمن بن رستم . وسيمتد تأثير هذه الامامة على قسم كبير من المغرب وستكون «طاهرت» عاصمة دينية وتجارية كبيرة في العالم الاسلامي .

وتأسيس دويلة اسلامية بربرية في منطقة طاهرت ليس مجرد صدفة ، فقد عرفت هذه المنطقة في القرنين السادس والسابع حكم مملكة بربرية قوية ، مملكة جدّار Djeddar **وتأسيس هذه الامة يكمل ـ في سياق تاريخي جديد ، هو نشر الاسلام والاندماج في العالم الاسلامي ـ مشروع بناء الدول الذي عرفته الشعوب البربرية .**

تمتد امامة طاهرت من تلمسان حتى جبال هدنة Hodna وتشمل منطقة جغرافية محددة : السهول العليا ، يحدها من الغرب اتحادات القبائل المستقلة والمملكة الادريسية ، ومن الشرق مملكة الاغالبة التي استقلت عام ٨٠٠ عن سلطة بغداد .

ولا نستطيع معرفة اهمية هذه الامامة اذا انطلقنا فقط من قاعدتها الاقليمية غير المحددة لان امامة طاهرت تشكل حلقة اساسية من سلسلة طوائف الخوارج التي امتدت على كافة اراضي المغرب من سجلماسة Sijilmassa في الغرب الى جبل نفوسة Neffoussa في الشرق مرورا بوركلا Wargla وسدراته Sedrata .

وتعتبر مدينة طاهرت مرتكز هذا الامتداد الاجتماعي السياسي

ولانها تقع عند تماس منطقتين جغرافيتين اقتصاديتين تكملان بعضهما البعض : التلال والسهول العليا ، فهي همزة وصل مناطق الزراعة مع مناطق تربية المؤاشي ونقطة تقاطع الطرق التجارية . وكان باستطاعة هذه المدينة الوصول الى البحر بسهولة نسبية، عن طريق وادي المنيا وبذلك تراقب مرافىء تينس Tenes ومستغانم Mestghanem ووهران ، وهي من جهة اخرى أحدى نهايات طرق القوافل التجارية وواحد من اكبر مرافىء الصحراء.

خلال قرن ونصف القرن نمت في طاهرت حضارة اصيلة تميزت باقتصاد مفتوح وطريقة حكم دينية الهية وحياة دينية خالصة .

وكانت امامة طاهرت تعيش من تربية المواشي وألزراعة وقد اشتهرت السهول العليا بالمراعي الواسعة وزراعة الحبوب . اما في وادي المينا والمناطق المحيطة بطاهرت فقد عرفت ألزراعة تنويعا متفوقا حتى على صعيد الحدائق .

لكن ازدهار هذه المدينة يكمن قبل كل شيء – في دورها كعاصمة تجارية كبيرة . فقد كانت تسحب وتعيد توزيع منتجات التل الزراعية والحرفية ومنتجات السفوح العليا والواحات وتقوم بدور منظم ألتقسيم الاجتماعي للعمل بين المزارعين والرعاة والبدو الرحل .

ولم يكن لهذا النشاط بعد مغربي فحسب اذ ان هذه المدينة واحدة من نهايات مطاف التجارة عبر الصحراء . وبصورة اخص، قد تكون احد مراقبي ذهب السودان الذي لعب دورا هاما في توسع التجارة الاسلامية عبر سجلماسة ووركلا .

ولما كانت طاهرت نقطة احتكاك افريقيا الجنوبية والمشرق والاندلس فانها تشغل مكانة متميزة . وكان التجار القادمون من كافة انحاء العالم الاسلامي يضعون رحالهم فيها حتى ان بعض المؤرخين ذكروا تواجد مسيحيين ويهود في هذه المدينة . وقد

جاء عن احد مؤرخي العصر «ابن الصغير» قوله : «كان لا بد لكل غريب ينزل المدينة الا ان يقيم بين اهلها ويبني في وسطهم وقد جذبه خيرها الوفير وسلوك «امامها» الحميد ... حتى لم يعد منزل في المدينة الا ويقال عنه : هذا منزل فلان من الكوفة ، وذاك منزل فلان من البصرة وذلك لفلان من القيروان ...»

نظام طاهرت السياسي هو من الديني الالهي ، جمهوري ديمقراطي من حيث المبدأ . والامام الحاكم يجب ان يعين من قبل جماعة المؤمنين – وذلك حسب مبادىء الخوارج – ويمكن عزله اذا انتهك أصول القرآن الكريم والسنة .

في الواقع أستطاع ابن رستم تأسيس سلالة ، لكن الأئمة الذين تلوه واجهوا صعوبة في بسط سلطتهم . والسلطة ، نظريا، واسعة جدا ، فالامام زعيم ديني وسياسي وعسكري ، اما في الواقع فسلطته محدودة جدا . ويراقب الامام عن كثب «علماء» يتوجب عليهم منعه من انتهاك أصول القرآن والسنة ولا يتمتع الامام بادارة مركزية او منوعة تمكنه من فرض سلطته على الرعية .

وكان نظام الضرائب بدائيا والمال يجمع من الضرائب التقليدية التي ينص عليها القرآن : الزكاة والعشر . ولم يكن لامامة طاهرت خزينة دولة وكانت الادارة متمثلة بأبسط صورها .

وقد جاء عن «ابي زكريا» : «كانت خيول «آلعباديين» ملكا لهم ولم تكن لهم حصة فى خزينة الدولة اذ كانوا يكسبون خبزهم بيدهم » .

ولم يكن الدولة الرستمية جيش نظامي بل مؤلف من مجندين متطوعين تقدمهم القبائل وفرق الخوارج المختلفة في حال وقوع خطر اكيد .

اذن فدور الامام هو رمز لوجود ووحدة الخوارج اكثر ما هو ممارسة الحكم الحقيقي .

ولم تعرف طاهرت نشاطا فنيا ظاهرا بسبب طبيعة الخوارج الداعية الى التقشف والطهرية . وقد تمحورت الحياة الثقافية في الواقع حول المسائل الدينية ، وعرف الفكر نقاشات حادة وجدلا بين مختلف التيارات الخارجية (نسبة الى الخوارج) كذلك بين الخوارج والمعتزلة .

وبالرغم من الديناميكية الاقتصادية والدينية لهذه الدولة ، فقد عرفت أمامة طاهرت خلافات داخلية اضعفتها امام اي عدوان خارجي محتمل .

ولم تستطع هذه الامامة ، بدون جيش او ادارة منظمة ، ان تفرض سيادتها على القبائل التي تصارعت مع سلطات المدينة واسترجعت استقلالها . من هنا ، كانت حدود هذه المدينة مطاطة وغير مستقرة .

وكانت هناك خلافات داخلية بين كافة الفرق ، بين الشعب والأئمة الذين حاولوا فرض سلطتهم ، بين الائمة والعلماء الراغبين بتكوين ارستقراطية حاكمة ، وبين العلماء انفسهم وخاصة حول وراثة الحكم . هذه الخلافات التي اتخذت غالبا شكل الانشقاقات الدينية كانت تنتهي احيانا بحروب اهلية .

واذا تعمقنا في دراسة هذه الامامة فاننا ندين احد اسس وحدتها : الالتحام الكبير الديني والاخلاقي . فانفتاح طاهرت وازدهارها وشهرتها العالمية تتناقض مع اخلاقية الخوارج المتطهرة والمتقشفة . والارستقراطية المتاجرة كانت تعيش عيشة مرفهة ولا تتورع عن القيام بتصرفات ذميمة أمام أعين الاخلاقية الخارجية . «كان السكان يشربون المسكرات علنا ويمارسون المنكرات لقضاء شهواتهم» .

خلال اكثر من قرن استفادت امامة طاهرت من السياق التاريخي العام ، اذ ان دويلات المغرب الثلاث : الاغالبة والادريسيين والرستميين كانت ذات قوى متعادلة تماما ، لذا

تعادل في المغرب تأثير العباسيين القادم من بغداد وتأثير بقايا الامويين في الاندلس .

الا ان طاهرت ، غير المجهزة بجيش نظامي والمليئة بالتناقضات، لم يكن بوسعها مقاومة التطورات في ميزان القوى على صعيد المغرب ، فسقطت تحت ضربات الفاطميين عام ٩١١ ــ وكانت دولة الاغالبة قد سقطت قبل ذلك ــ ولجأ من تبقى من الخوارج الى وركلا وسدراته .

٢ ــ محور الشرق :

الامبراطورية الفاطمية ، ممالك الزريديين والحماديين ٩١١ ــ ١١٥١

منشأ هذه الدولة ، ارتباط بين الشيعة وقبيلة قتامة Ketama ، ومآثرها تكمن في تأسيس مملكة جديدة في مصر وتأسيس مملكة راسخة في نصف المغرب الشرقي ، بعد محاولة عابرة لتوحيد المغرب .

١ ــ الدولة الفاطمية :

الشيعة طائفة تعتبر ان حق الخلافة محصور شرعا في ذرية النبي (ص) من ابنته فاطمة وصهره علي بن ابي طالب ، وتدين بالتالي شرعية الخلافة العباسية ، احد دعاة الشيعة ، ابو عبدالله، نزل في المغرب عام ٨٩٣ واتفق مع قبيلة قتامة للدعوة للمهدي عبيد الله . وهذه القبيلة ، التي تقع ارضها في مثلث سطيف ــ

جيجل – قسطنطينة ، تخضع مبدئيا للامراء الاغالبة لكنها في الحقيقة مستقلة .

وتبدا بطولات الفاطميين يوم هاجموا دولة الاغالبة المرتبطة ارتباطا ضعيفا بالدولة العباسية . وبعد معارك استمرت عدة سنوات استطاعت قبيلة قتامة بقيادة ابي عبد الله سحق جيش الاغالبة عام ٩٠٥ واحتلال تونس وشرق الجزائر (افريقيا عام ٩٠٩ .

وعندما وصلته أنباء الانتصارات ترك المهدي عبيد الله المشرق متجها الى المغرب . وفي الطريق اوشك ان يقع في الاسر عند امير سجلماسة لولا ان جيشا فاطميا انقذه ووضع مراقبة على المدينة ثم وصل هذا الجيش الى طاهرت واحتلها . عام ٩١١ دخل عبيد الله الى رقادة Raqqada التي كانت عاصمة الاغالبة.

انتصار الفاطميين هذا سهّل له ضعف الدولة العباسية واهتزازها امام الثورات الشعبية كثورة الزنج في العراق وثورة الخوارج في طبارستان وثورة القرامطة والحركات الانفصالية التي قامت في خراسان وتركستان ومصر .

ولم تكن غاية الفاطميين اقتطاع مملكة في المغرب وحسب بل ايضا التوسع نحو كافة أرجاء الدولة العباسية واعادة توحيد المسلمين تحت لواء الشيعة .

منذ دخوله الى رقادة ، لقّب عبيد الله نفسه بأمير المؤمنين، شاطرا بذلك وحدة العالم الاسلامي السياسية ومحطما احد مبادىء الاسلام السياسية ، الا وهو وحدانية الخليفة . وهكذا، ابتداء من هذا التاريخ ثلاثة خلفاء سيتقاسمون العالم الاسلامي : العباسي والفاطمي والاموي في قرطبة (ابتداء من عام ٩٢٩) .

والدليل على رغبة الفاطميين في السيطرة تأسيسهم لعاصمة جديدة على الساحل : **المهدية** ، لكن هذه الغاية لن تتحقق سريعا وفشل الغزوات الاولى نحو مصر اكبر دليل . لذا فانهم سيعملون

طيلة نصف قرن على بناء قوة عسكرية واقتصادية هامة .

ولسياسة الفاطميين في المغرب ثلاث ميزات اساسية . على الصعيد الديني ، قاتلوا الخوارج وفرضوا التشيع كدين رسمي؛ على الصعيد المالي ، اثقلوا عاتق الناس بالضرائب الباهظة ، وضريبة العقار ، الخراج ، المتوجبة مبدئيا على غير المسلمين ، كان يدفعهما المغاربة . على الصعيد العسكري ، تميزت الخمسون عاما من حكم الفاطميين بمحاولات التوسع المستمرة نحو الغرب . ويبدو ان الغاية في ذلك ، تحويل الطرق التجارية لصالح محور شرقي - غربي بدل ان يكون شمالي - جنوبي يمد الخليفة الاموي في قرطبة .

ومر قبة مدن المغرب الغربي (طاهرت ، سجلماسة ، تلمسان، فاسو) لا تعني بالضرورة ان الفاطميين استطاعوا فرض سلطتهم على المغرب لوقت طويل .

عام ٩١١ ، ثارت طاهرت ، ٩١٢ دور طرابلس . عام ٩٤٣ اشتعلت ثورة استمرت اربع سنوات وشكلت خطرا على الفاطميين . ابو يزيد ؟ الملقب « بالرجل ذو الحمار » ، حرك شعب المغرب تحت لواء الخوارج . والثورة التي انطلقت من المغرب الاوسط ، عمت افريقيا (تونس وشرقي الجزائر) ولم تقف الا عند حدود «المهدية» .

واصطدم الفاطميون كذلك بأمويي قرطبة الذين بدأوا بدخول المغرب الغربي وغايتهم الحفاظ على المحور شمال - جنوب لطرق التجارة والاستفادة من الربح . وتم هذا الصراع عن طريق تحريك القبائل مما ساعد على خلق حياة سياسية عديمة الاستقرار في المغرب كمطالبة القبائل بالحكم الذاتي وصراعات ظاهرة بين القبائل نفسها واختلاط كبير في التحالفات .

عام ٩٦٩ نجح تدخل عسكري جديد في مصر ، والجيش الفاطمي المؤلف من البربر - اذ يشكل جنود قتامة « قاذفات النار »

في هذا الجيش ـ دخل القاهرة .

عام ٩٧٣ ترك الخليفة المعز المغرب نهائيا حاملا معه رفاة اجداد ومصطحبا موظفيه .

وقد كان لبطولات الفاطميين اهمية كبرى على السياسة المغربية . ومع الحكم الفاطمي يكون المغرب قد ترك النطاق الضيق للحياة السياسية في المنطقة وتدخل بصورة اكيدة ، في سياسة العالم الاسلامي الكبرى ورجال قبيلة قتامة هم في الواقع وراء تأسيس الخلافة الفاطمية التي حكمت مصر خلال قرنين من الزمن .

وبمآثر الفاطميين ، تنتهي ايضا هيمنة المشرق على المغرب ، وان كانت الحضارة العربية الاسلامية قد طبعت بطابعها البنية السياسية لدويلات المغرب الا ان جهاز الحكم في هذه الدويلات قد لا يتشكل بعد ألان الا من موظفين مغاربة .

ابن خلدون عرف جيدا تأثير ترك الفاطميين للمغرب وانتقالهم الى القاهرة : «لقد انهت هذه الثورة بشكل نهائي سيطرة العرب في «افريقيا» وأعطت قتامة حق السلطة العليا ، وقد اتبع بربر المغرب فيما بعد خط جيرانهم ، وهكذا أختفى تأثير العرب في «افريقيا» والمغرب الى الابد بتأسيسهم مملكة جديدة . وانتقلت السيادة ألى يد البربر» .

٢ ـ الدولة الزيرية :

قبل ذهابه الى مصر ، عين الخليفة الفاطمي «بولوجين» Bologgin ، أبن احد كبار الضباط «زيري بن مناد» حاكما على اراضيه في المغرب . وكانت قوة بولوجين نابعة من اهمية الخدمة العسكرية التي يقدمها للخليفة الفاطمي ، اذ كان

الذراع اليمنى في الجيش . لذا ، بالمقابل ، قدّم الفاطميون له حكم المغرب الاوسط وحق الاحتفاظ بالمناطق التي يستطيع ان يسيطر عليها وليكون حكمه مستقلا ، خول زيري حق بناء عاصمة، «عاشير» ، تقع على تماس ستبس Steppes والتل Tell ، عند منفذ وادي ايسر وشليف Chelif .

واسس ايضا ثلاث مدن اخرى : الجزائر ، مليانة والمدية وولى عليها ابناءه ثم انه سك عملة باسمه .

وذهاب الفاطميين لم يغير الواقع السياسي في المغرب : وبولوجين الذي راى سلطته تمتد نحو «افريقيا» وشمال ليبيا Tripolitaine ، استمر في منصبه كحاكم باسم الخليفة الفاطمي وتابع سياسة الفاطميين في المغرب اي التوسع نحو الغرب .

فترة الانتقال هذه استمرت حوالي عشر سنوات . وما ان وصل خليفة بولوجين ، المنصور ، الى الحكم حتى ابدى رغبته بالاستقلال . وهكذا تكون الدولة الزيرية قد مشت في طريق الاستقلال وان كانت لا تزال تابعة رسميا للقاهرة ، ولن يتم هذا القطع قبل عام ١٠٤٨ .

لكن وحدة النصف الشرقي للمغرب لن تستمر طويلا ، فبين «افريقيا» والمغرب الاوسط هناك تفاوت واضح تعود اصوله الى العصور القديمة ، ومنطقة «افريقيا» اكثر عمرانا ونموا اقتصاديا من المغرب الاوسط وبنية الدولة فيها ارسخ . واخيرا ، للمنطقة الاولى اشعاع ثقافي لا يقارن مع ثقافة المنطقة الثانية .

والدولة الزيرية ستنجذب نحو «افريقيا» وسيبدا حكامها تدريجيا بترك عاصمتهم لينتقلوا الى المنصورية تاركين حكم المغرب لسلالة تتفرع منهم هم **«الحماديون»** . هذه الدولة الجديدة ستعلن استقلالها عام ١٠١٤ وتقطع صلاتها بالقاهرة وترتبط ببغداد .

تراست الدولة الحمادية حكم المغرب الاوسط خلال قرن ونصف القرن وكانت حدود الدولة الشرقية ثابتة نوعا ما لكن شكل حدودها الغربية لم يكن واضحا . واتماما لسياسة التي اتبعها الزيريون في البداية ، حاول حكام الدولة الحمادية بسط يدهم على المغرب الغربي ، وسيطروا على «تلمسان» زمنا طويلا . عام ١٠٦٢ احتلوا مدينة «فاس» لفترة قصيرة . ثم استفادوا من انهيار الدولة الاموية في اسبانيا عام ١٠٣١ وقاموا باخضاع القبائل الكبرى الزينيتية Zenétes ، مغـــــروة Maghroua وبني عفران التي كان يحميها الخليفة الاموي .

وكان للحماديين عاصمتان متتاليتان ، الاولى قلعة بني حماد، بنيت عام ١٠٠٧ اي قبل اعلان أستقلال الدولة الحمادية ، وتقع على حافة مرتفعات «التل» مشرفة على «ستبس الهدنا» ، وعلى طريق تجارية عظيمة الاهمية تصل ثغرة بيسكره Biscra بالساحل ؛ والثانية بجايه Bejaia ، أسست عام ١٠٦٧ وأصبحت في القرن الثاني عشر اهم مركز تجاري حرفي سياسي وثقافي في المغرب ، وتقع على ساحل «القلعة» الشمالي .

لقد عرف المغرب نهضته الكبرى تحت حكـــم الحماديين . استفادت هذه الدولة لمدة طويلة من الاوضاع المؤاتية عالميا ، في الشرق . بعد عدة محاولات للتوسع عادت العلاقات بين الحماديين والزيريين الى الجمود ، وقد استفاد الحماديون من الاضطرابات التي أدى اليها وصول الجنود «الهلاليين» الذين ارسلهم الفاطميون لمعاقبة الزيريين ، وكان هؤلاء قد قطعوا صلاتهم بالقاهرة عـــام ١٠٤٧ . استفاد الحماديون من هذا كله ليقيموا علاقات جيدة مع الفاطميين ، هذا الظرف المؤاتي اعطى الفرصة لمدينتي القلعـــة وبجايه لاحتلال مكانة القيروان التجارية والفكرية في المغرب .

هذا في الشرق ، اما في الغرب وحتـــى بروز دولتـــي «المرابطين» ثم «الموحدين» استفاد الحماديون من الفوضى التي

عمت المغرب الاوسط واسبانيا من جراء تمزق الدولة الاموية . وهنا ، مرة اخرى ، ستحتل مدن الحماديين مكانة مدن المغرب الاوسط خاصة فاس وسيرتا Ceurta – كوسيط بين افريقيا والغرب الاسلامي . واستفادت بجاية من ارتداد المسلمين الى اوروبا ومن هجمات المسيحيين باتجاه البحر المتوسط لتصبح واحدا من اهم نقاط الاحتكاك بين العالمين المسلم والمسيحي ، واصبحت كل من القلعة وبجاية بالتناوب ، منطلقا لاكبر حركات التجارة العالمية في ذلك العصر . وكانت كل مدينة تسحب الثروات ثم تعيد توزيعها في المغرب والمشرق وافريقيا الغربية .

ان القوافل القادمة الى «القلعة» كانت تاتي «من العراق والحجاز ومن مصر وسوريا وكافة نواحي المغرب» . «كان السكان في مدينة بجاية اكثر ثروة وجدارة في الفنون والمهن من غيرهم لذا ازدهرت تجارتهم . وتجارها على علاقات بتجار افريقيا الغربية وتجار الصحراء والغرب . وكانت تودع فيها بضائع متعددة الاصناف . حول المدينة زرعت السهول قمحا وشعيرا وفاكهة وفيرة . وقد اشيدت فيها المباني الكبيرة وبنيت السفن والزوارق اذ ان الجبال المحيطة كانت مشجرة وتنتج احسن انواع الصمغ والقطران . وقد عمل سكانها على استثمار مناجم الحديد ذات الانتاج الجيد ... وباختصار كانت المدينة صناعية جدا .»

واستفادت بجاية جيدا من انفتاحها على المتوسط . وكانت التجارة مع المسيحيين وأعمال النهب والقرصنة ضد النورمنديين في صقلية تكوّن عاملا مهما لنمو المدينة التي كانت تعد ١٠٠،٠٠٠ نسمة وتضم أقلية مسيحية مهمة لدرجة أن البابا غريغوار الثالث ارسل اليها مطرانا باذن من الحماديين .

ان ازدهار المملكة الحمادية لم يكن مرتبطا بكونها منطقة عبور فحسب بل بنشاطاتها الزراعية والحرفية . ومع ان الزراعة تركزت على الحبوب والزيتون آلا ان الصناعة اليدوية شملت اكثر

من ذلك كتحويل المنتجات الزراعية وخاصة انتاج زيت الزيتون، واستخراج المعادن وتصنيعها ، صناعة الخشب ، بناء السفن ...

هذا النمو الاقتصادي ادى الى جذب مفكري «افريقيا» والاندلس وبالتالي الى ولادة مجمّع ثقافي عظيم الاهمية .

«كانت قاعة ادباء بجاية تضم ١٠٤ من مشاهير الحقوق ، الطب والشعر ... وكان في المدينة عدد من الاولياء المسلمين وعلماء الدين . من هنا جاءت تسميتها ب «مكة الصغيرة» .

مع نهاية القرن الحادي عشر بدا نجم الحماديين بالافول وانتهى حكمهم بسقوط بجالة بيد «الموحدين» عام ١١٥١ . هذا الأفول يعود نوعا ما الى اسباب داخلية خاصة عدم استقرار السلطة السياسية وعدم الاستقرار هذا صفة مشتركة بين كل دويلات المغرب في ذلك العصر ، ومرتبطة بطبيعة هذه الدويلات. والسبب الاساسي يكمن في تغير الظروف العالمية ، تلك الظروف إلتي كانت مؤاتية للحماديين خلال قرن تقريبا .

وان استفاد الحماديون في البدء من دخول الهلاليين في المملكة الزيرية لكنهم سيدفعون الثمن ولو بعد حين . فالقبائل الهلالية التي نزلت في عمق الدولة الحمادية وتحت سيطرتها (سهل متيجة Mitidja ووادي «المولوية») ، ستنقلب على الدولة المضيفة وتجبر السكان المزارعين على دفع الغرامة ، وفي السنين الاخيرة من القرن الحادي عشر اضطر السلطان «المنصور» الى اعطاء الهلاليين نصف المحاصيل مقابل تأديتهم الخدمة العسكرية .

وقد قوى دخول الهلاايين الاستعداد الداخلي لانحلال دولة الحماديين وهذا ما حصل في عدة امارات معادية . كما ادى دخولهم الى زيادة الركود في الاقتصاد العام بسبب قوة الضغط الاقتصادي والعسكري الذي مارسه المسيحيون في البحر المتوسط الغربي .

والحقيقة ان الحماديين ، بتركهم «القلعة» واتخاد بجاية عاصمة لهم ابتداء من عام ١٠٩٠ ، سيشهدون ازدهارا لبضع عشرات من السنين ، لكنه ازدهار ضعيف لانه في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر سيقوم اول هجوم معاد مسيحي في البحر المتوسط وضد العالم الاسلامي بشكل عام ، استفاد ملوك كستيلية Castille من تفكك الدولة الاموية وتجزئها «ملوك تايفاس» Roi des Taifas وابتداوا الغزو .

اما في الشرق فاننا سنشهد الحروب الصليبية الاولى حين تقع القدس في يد المسيحيين عام ١٠٩٩ .

وكانت مملكة الحماديين في المواقع الامامية خلال هذه المواجهة ، واستفاد الحماديون من موقعهم هذا في البداية لكنهم اصبحوا فيما بعد هدفا من اهداف الهجوم المسيحي الذي يتوسع يوما بعد يوم .

عام ١١٣٦ هاجم اهل جنوة مدينة بجاية ، عام ١١٤٣ احتل نورمنديو صقلية ، المستوطنين في المهدية ، مدينة جيجل ومواقع اخرى من الساحل الحمادي .

ادى التراجع المسلم في الشمال الغربي والوضع الخطير في الشرق الى اختلال ميزان القوى في وضع المغرب السياسي ، واصبح من المستحيل توحيد المغرب ابتداء من الشرق ؛ او سيطرة ملوك تايفاس على المغرب الاوسط . في الوقت ذاته ، ظهر ثقل جديد في الغرب وبالتحديد في الجنوب الغربي من الصحراء الغربية . من هذه الجهة ستنطلق محاولات جديدة لبناء دولة . واذا كانت بطولات **«المرابطين»** تتوقف عند حدود مدينة الجزائر فان دولة «الموحدين» طغت وبسرعة على المغرب كله . عام ١١٥١ وقعت بجاية ؛ عام ١١٦٠ بسط «الموحدون» سلطانهم على المغرب كله .

محور الغرب :

امبراطورية المرابطين و الموحدين ، المملكة الوديدية ١١٥١ — ١٥٤٣

خلال اكثر من اربعة قرون كان مركز الثقل في المغرب الاوسط يقع في الغرب . واستمر هذا الوضع حتى خروج «الوديديين» من تلمسان على يد الاتراك.

بعد فشل «المرابطين» في محاولتهم ، وحّد «الموحدون» بلاد المغرب ضمن حدود امبراطورية واسعة تقع في الغرب . وسينبثق ثلاث ممالك عن انحلال هذه الامبراطورية : في الغرب الدولة المرينية ، في الشرق الدولة الحفصية ، وفي الوسط الدولة الوديدية .

الامبراطوريتان «المرابطية» و «الموحدية»

كان وراء قيام دولة «المرابطين» قبيلة تدعى لمتونة **Lemtouna** من الصحراء الغربية ، وعقيدة دينية «المالكية» قامت كردة فعل ضد الشيعة ، وصاحب هذه الدعوة هو ابن ياسين .

في البداية ، عام ١٠٥٤ ، استولى المرابطون على اوداغست Aoudaghost وتوسعوا نحو غانا ، وهكذا سيطروا على قسم كبير من انتاج وتجارة الذهب . عندئذ فكروا بالتوسع نحو المغرب الغربي والاوسط بقيادة ابن تاشفين خليفة ابن ياسين الذي قتل في المعركة . عام ١٠٦٩ استولوا على مدينة فاس . بين عامي ١٠٧٠ و ١٠٨٠ قاموا باحتلال اوجه Oudja وتلمسان ووهران

وتوقف تحركهم على حدود مدينة الجزائر حيث كانت المملكة الحمادية لا تزال قوية . ثم انهم وسعوا تحركهم نحو اسبانيا حيث وحدوا لصالحهم ، الاراضي الاسلامية في الجنوب واوقفوا غزوات المسيحيين .

لكن هذه المآثر لن تطول ففي عام ١١٤٧ انهارت امبراطوريتهم تحت ضربات الموحدين .

وسيتبع الموحوون في تشكيل امبراطوريتهم نفس الخط الذي اتبعه المرابطون مع بعض التغييرات ، اي سيكون هناك مجموعة من القبائل (في الاطلس) ، ومصلح ديني هو «ابن تومرت» ؛ وعقيدته تميزت بمحاولة جمع التيارات الدينية المختلفة المنتشرة في ذلك العصر ، وبطهرية متصلبة على الصعيد الاخلاقي .

وكان مقر ابن تومرت في تنمال Tinmall عام ١١٢٤ ، في وسط الجبل حيث هيأ اول جماعة من أتباعه وثقفهم دينيا وعسكريا .

ولكي يوحد قبائل البربر وضع ابن تومرت بنيته السياسية التي تدخل في التنظيم الطائفي الجديد ، عناصر من التنظيم القبلي التقليدي .

بعد وفاة ابن تومرت عام ١١٣٠ جاء عبد المؤمن ؟ الذي حمل لقب الخليفة امير المؤمنين **وتكون هذه المرة الاولى التي يحمل فيها حاكم مغربي لقب الخليفة الذي كان منحصرا بالقرشيين .**

وخلال ولايته سيبدأ توسع الموحدين نحو المغرب واعادة فتح اسبانيا .

هاجم جيش الموحدين اولا جنوب شرق المغرب وسيطروا على طرق الذهب ثم صعدوا نحو الشمال واحتلوا «فاس» . عام ١١٤٦ سقطت مراكش عاصمة المرابطين وانهارت امبراطوريتهم .

تابع الموحدون تقدمهم نحو الشرق . عام ١١٥١ سقطت بجاية وبذلك انتهت الدولة الحمادية . عام ١١٦٠ سقطت المهدية وانتهت

المملكة الزيرية اي انهزم نورمنديو صقلية الذين احتلوا المدينة منذ اثني عشر عاما .

تابع الموحدون حروبهم ضد هجمات المسيحيين في المتوسط ثم نقلوها الى اسبانيا حيث قاموا – كما فعل المرابطون قبلهم – بايقاف غزو الاسبان .

عند وفاة عبد المؤمن عام ١١٦٣ ، كان المغرب – للمرة الاولى والاخيرة – يؤلف كيانا سياسيا موحدا تحت حكم دولة راسخة وأصيلة . فترة الوحدة هذه استمرت خلال أقل من قرن بقليل .

وقد تميز الحكم الموحدي بسعي عبد المؤمن ومن خلفه الى وضع جهاز حكومي مركزي في المغرب لا تموله موارد التجارة الكبرى بل ضرائب منتظمة مرتكزة بالاصل على الانتاج الزراعي .

وقد ابدل عبد المؤمن النظام السياسي المرن الذي وضعه ابن تومرت في تنمال ، بنظام حكومي اكثر مركزية واختلافا . ولكي يؤمن سير العمل في الاجهزة الحكومية الجديدة أسس الموحدون مدرسة تخرج موظفين اداريين . وكانت هذه المدرسة تضم ٣٠٠٠ شاب في عهد عبد المؤمن .

ظهرت اهمية التجديدات التي جاء بها الموحدون بصورة خاصة على صعيد الضرائب . فقد فرض عبد المؤمن على اهالي المغرب (ما عدا القبائل التي ساهمت في تأسيس الدولة) ضريبة الخراج . وللمرة الاولى سجلت أراضي المغرب كلها في دائرة المساحة . وجباية الضرائب كانت من عمل القبائل الهلالية . هذا النظام المالي الذي شمل ايضا المباني في المدينة سمح لخزينة الدولة بامتصاص جزء كبير من الفائض الاقتصادي المغربي وتمويل الجيش وتوسيع الحروب ضد ملوك اسبانيا .

وحالة الحرب الشبه مستمرة ستؤدي الى مصاعفات في الاقتصاد المغربي الذي لن يشهد نموا ظاهرا في قواه المنتجة خلال

حكم الموحدين . ولا يبدو ان الانتاج الزراعي او العمل اليدوي قد عرفا اي تغيير او تقدم يذكر باستثناء بعض مناطق الازدهار في اقصى الغرب واقصى الشرق في المغرب ، وعظمة الامبراطورية الموحدية تكمن في تحريك المقدرات المنتجة الموجودة قبلا لصالح الجهاز الحكومي الموحدي وخاصة لصالح الجيش . والصناعة الحربية قد تكون الصناعة الوحيدة التي توسعت . وقد استعمل عبد المؤمن في حملته ضد المملكة الزيرية ونورمنديي صقلية سبعين سفينة حربية ، وتحضيرا لحملة الى اسبانيا ، امر ببناء ٤٠٠ سفينة . «مؤشر آخر على عظمة الصناعة الحربية هو ان مقدرة انتاج الاسهم كانت ١٠ كنتالات في اليوم» .

والحروب بين الاسلام والمسيحية لم تمنع نمو العلاقات التجارية بين ضفتي المتوسط الغربي . الطرقات التجارية تغيرت، والمحوران شرق – غرب وشمال – جنوب فقدا اهميتهما امام المحور جنوب – شمال شرق حيث نقاط النهايات بيزا ، جنوة ، البندقية ومرسيليا . وكان كبار التجار المسيحيين ينزلون في اشهر موانىء الامبراطورية . «للشهادة على ذلك ، هذه الرسالة من تاجر تونسي الى زميله في بيزا : لا تتردد في المجيء ، ستجد استقبالا حافلا اينما حللت ، لك ولمن معك . هنا البضائع جيدة وباستطاعتك ان تبتاع كل ما تريد» .

والظروف التي تمت فيها التجارة تدل على قيام علاقات جديدة وقوية بين العالم المسلم والعالم المسيحي في البحر المتوسط الغربي . وتفوق الاسطول الموحدي لا يذكر الا في المجال الحربي ، اما على الصعيد التجاري فان سفن المدن الايطالية ومرسيليا هي التي كانت تؤمن شحن البضائع .

واذا عرف النصف الثاني من القرن الثاني عشر نهضة الامبراطورية الموحدية فان النصف الاول من القرن الثالث عشر عرف شحذ الخلافات التي ستؤدي الى تجزئة الامبراطورية .

وكبر الخلاف بين هذه الامبراطورية واسبانيا المسيحية . عام ١٢١٢ ، تغلبت الجيوش المسيحية على جيوش الموحدين في معركة لاس نافاس تولوسا Las Navas De Tolosa . هنا بدت امبراطورية الموحدين غير قادرة على صد الاس[illegible] مقاومة زحفهم .

ان فوقية اوروبا Superiorite التي ستقوى خلال القرون اللاحقة مردها الى نظام وتطور المجتمع الاسلامي . هذا وان هزائم الموحدين في اسبانيا تبدو وكأنها نتيجة انتصارات العرب في الشرق ، فقد طرد الصليبيون من القدس على يد صلاح الدين الايوبي عام ١١٨٧ . بعد هذه الهزيمة ركز الامراء المسيحيون كل جهودهم لاستعادة اسبانيا .

ولم تكن دولة الموحدين موحدة وقادرة على صد الهجوم المسيحي بل كانت الخلافات الداخلية تشغلها .

والخلاف بين الجهاز الحكومي والاهالي تمثل على ثلاثة أوجه: امتصاص الثروات بواسطة الضرائب أوقع الخلاف بين الحكام والاهالي المتأثرين بالضرائب . عدم التسامح الديني لدى الحكام الموحدين الذين فرضوا مذهب ابن تومرت كديانة رسمية ، اوقع الخلاف بينهم وبين المغاربة المناصرين للخوارج والمالكية . وتوحيد المغرب واسبانيا المسلمة سياسيا اصطدم اخيرا بخصوصيات قديمة ورثت عن الماضي لكنها لا تزال حية . اضف الى ذلك ، خلافات داخلية في جهاز الدولة الموحدية نفسه .

على الصعيد الديني حاول ابناء عبد المؤمن تصفية احد أوجه الخلاف بتخليهم عن عقيدة ابن تومرت . عام ١٢٢٩ اعلن «المأمون» رسميا التخلي عن هذا المذهب . هذا القرار ، بدل ان يزيد من شعبية الموحدين ، قوى الخلافات بين الفئتين الحاكمتين وخلع صفة الشرعية الدينية عن الدولة .

على الصعيد العسكري ، بدا جهاز الدولة مركزا وموحدا ،

وتنظم الجيش ، اداته الفعالة ، على اساس غير متجانس حيث انعكست خلافات الدولة واضحة . وفي فترة الازمات لم يعد النظام قادرا على الاعتماد على جيشه بل على العكس بدا ظهور الحكم الذاتي لدى قواده وهذا ما اسرع في انحلال الامبراطورية.

على الصعيد السياسي انقسمت الفئات الحاكمة الى قسمين: ذرية عبد المؤمن الراغبين في جعل الحكم وراثيا وذرية ابو حفص، اخ عبد المؤمن ، الراغبين في اقتسام ممارسة الحكم .

هذه الخلافات ظهرت على شكل ثورات مستمرة وصراعات بين مختلف اجزاء الجهاز الموحدي بغية أقتسام السلطة . واشهر هذه الثورات ثورة ابن غنية الذي جاء على راس القبائل الثائرة وهاجم المغرب الاوسط ثلاث مرات واحتل لفترة كل «افريقيا» تقريبا . بعد ثورة ابن غنية ألثانية ، عين نائب الملك الحفصي حاكما لافريقيا . هذا القرار وضع حدا لاستئثار سلالة عبد المؤمن بالحكم وفي الوقت ذاته اضعف وحدة الجهاز الحكومي المتمثل بالعائلة المؤمنية .

ثم اتضح ان الامبراطورية الموحدية لم تعد قادرة على ضبط الخلافات فيها وعاد المغرب لينقسم من جديد الى ثلاث دويلات في الغرب المملكة المرينية ، في الفرب المملكة الحفصية ، في الوسط المملكة الوديدية .

١ ــ **المملكة الوديدية** (نسبة الى عبد الوديد)

خلال ثلاثة قرون ، كان وجود المملكة الوديدية في تلمسان ، بالرغم من ضعفها ، يرمز الى ثبوت التقليد الحكومي في المغرب الاوسط .

نشأت الدولة الوديدية من تجزئة الامبراطورية الموحدية . وقد كان رئيس الوديديين يغموراسان Yachmourasan مساعدا

عسكريا لدى الموحدين وكانت مهمته في البداية السيطرة على قسم كبير من المغرب الاوسط ثم ، مع توسع الخلافات ، بدا يقوي حكمه . عام ١٢٣٥ اعلن يغموراسان سلطته على الاراضي التي تمتد من الملوية حتى القابيلية Kabylie ، وطلب من الموحدين الاعتراف بذلك . وكانت تلمسان مركز مملكته ، وتمتاز بموقعها الجغرافي الذي يعطيها مكانة عظيمة ، اذ تقع على مفترق طريقين تجاريين كبيرين : الطريق الصحراوي والطريق البحري للتجارة في المتوسط (حنين ، وهران) .

تحت تأثير الصدامات مع جيرانها والضغوط التي تمارسها عليها القبائل الرحل ، ستشهد مملكة تلمسان ، انقلابات مفاجئة في الحياة السياسية جيدة احيانا وغير مطمئنة في اغلب الاحيان. وقد استمر ذلك مدة ثلاثة قرون ونرى اكثر من مرة حدود هذه الدولة تتقلص حتى لا تكاد تشمل ألا العاصمة وأحيانا نرى الدولة تصل الى حافة الانهيار .

وسبب الصراعات بين ممالك عبد الويد والمرينيين والحفصيين يكمن في ان كلا من هذه الممالك ترغب في توحيد الامبراطورية بشكل يضمن مصالحها . وأكثر من مرة نرى الوديديين يتوسعون نحو الشرق محاولين الوصول الى عاصمة الحماديين بجاية ، لكن دون جدوى .

وسيتعرض الوديديون بشكل دائم لاعتداءات المرينيين والحفصيين مجتمعين . وقد احتل المرينيون تلمسان مرتين (١٣٣٧ ــ ١٣٤٨ و ١٣٥٢ ــ ١٣٥٩) لكن ضعف كل من الدولتين النسبي حال لأي منهما دون ممارسة هيمنتها بشكل دائم .

وقد أتلفت الصراعات المستمرة هذه المملكة وجعلتها عاجزة عن بسط سلطانها على القبائل الشبه مستقلة التي ترتبط ، حسب مصالحها ، بواحدة او بأخرى من الدول الثلاث التي تتقاسم المغرب .

واذا استطاعت مملكة تلمسان الاستمرار ، بالرغم من تقلصها احيانا ورغم البيئة المعادية التي تعيش بها ، فلأن قاعدة بقائها الاقتصادية تكمن في دورها التجاري . وتلمسان التي كانت تعد ١٠٠،٠٠٠ نسمة في القرن الرابع عشر كانت مكان تبادل المنتجات الزراعية التي تعطيها السهول المحيطة وتبادل الحرفيات التلمسانية . والمدينة ايضا مركز توزيع السلع التجارية للمسافات الطويلة .

الدولة والمجتمع في المغرب الاوسط
ازمة القرن الرابع عشر

ـــ ان التنظيم السياسي للمغرب الاوسط في العصر الوسيط اثار وما يزال مناقشات عديدة . بالنسبة للمؤرخين الاستعماريين ، يجب الا نتحدث عن تنظيم بل عن فوضى . ولم يكن التاريخ السياسي للمغرب الا تعاقب طويل لصراعات غامضة بين القبائل التي اعاقت أقامة حكم سياسي تابع للدولة . هذا التفسير لا يأخذ بعين الاعتبار وجود المملكات والامبراطوريات خلال هذه الحقبة ، التي عرفت حياة ثابتة خلال عشرات السنين . ولم تبدأ عملية التفتيت السياسي في المغرب الا ابتداء من القرن الرابع عشر . ولكي نفهم الحياة والبنيات السياسية في المغرب في العصر الوسيط يجب الا نسقط المعايير المستعملة لتحديد التكوينات الحالية للدول .

اذا حللنا تاريخ المغرب الاوسط معتمدين المعايير الحالية

للحياة السياسية في الدولة ، كاقليم ضمن ارض وحدود مستقرة وعاصمة ثابتة ذات مركزية تدير كافة نواحي الاقليم ، وتعاقب حكومات منبثقة عن صراعات داخلية سياسية ؛ اذا قمنا بهكذا تحليل لوجدنا ـ لاول وهلة ـ ان تاريخ المغرب الاوسط معقد فعلا .

بدل التحدث عن اقليم متجانس ، يجدر بنا ، في اغلب الاوقات ، **التحدث عن مناطق ذات تأثيرات دينية وعسكرية ومالية لم تكن تتوقف كليا** . بعض القبائل يعترف بسلطة الملك الدينية لكنها ترفض الاذعان لدفع الضريبة ، وهي قد تقبل اداء الخدمة العسكرية او على العكس تدخل في حالة عصيان . ومفهوم الحدود لم يكن له معنى حقيقي . والاصح التحدث عن المراكز السياسية ذات اشعاع تحده منافسة هذه المراكز لبعضها البعض وقوى متنابذة تلازم طبيعة هذه المراكز . وامامة طاهرت لم يكن لها قاعدة اقليمية بحصر المعنى (مدينة وضواحي فقط) ، غير انها كانت تتمتع باشعاع ديني (كعاصمة القيروان) واقتصادي (مراقبة الطرق الصحراوية) . واذا كانت المملكة الحمادية ذات حدود واضحة ، من جهة الشرق ، مع المملكة الزيرية فان منطقة نفوذها نحو الغرب والجنوب كانت متغيرة الى اقصى حد . واذا كانت هذه الحدود ، في البداية ، تمتد الى ما وراء تلمسان (اختيار القلعة كعاصمة يرمز لهذه الفترة) فهي تتقلص بعد ذلك حتى لا تشمل الا شريطا ساحليا دقيقا (بجاية ترمز لهذه الفترة) . وهذا ما حصل ايضا لمملكة تلمسان ومنطقة نفوذها كانت تتغير حسب تصرفات المراكز الحكومية المرينية (في الغرب) والحفصية (في الشرق من جهة وتصرفات قبائل ما وراء تلمسان من جهة ثانية .

من غير الممكن ـ في حالة المغرب الاوسط ـ ان ناخذ مركزا حكوميا ثابتا كنقطة استدلال على اختلاف المغرب الغربي (فاس) وافريقيا (القيروان) كل الحقبة الوسيطة كانت مميزة بحركة

تناقضية مزدوجة نابذة وجاذبة نحو افريقيا والمغرب الغربي . واذا استمر المغرب الاوسط في اثبات هوية خاصة فانه يستمر ايضا في التطلع نحو الشرق والغرب . والمراكز الحكومية التي تكونت أثناء هذه الحقبة تكشف هذه الحركة المزدوجة (عاشير ، القلعة وبجاية من جهة ، وتلمسان من جهة اخرى) .

ان عدم وجود حدود بالمعنى الدقيق خلق ظروفا معينة لتعاقب الحكومات . وكان ممكنا ظهور مركز حكومي على حدود مناطق النفوذ التابعة لدولة ما ، يتواجد المركزان ويتنازعان لمدة معينة واخيرا يهدم الجديد القديم . **لذا فتاريخ ولادة تكوين حكومي جديد وتاريخ موت قديم ، غالبا لا يتطابقان** . والتكوين الحكومي الفاطمي ينتظم داخل مثلث سطيف ، جيجل ، قسطنطينة لعدة سنوات قبل انهيار المملكة الاغلبية . ومملكة عبد الوديد ، عززت سلطتها من «الملوية» الى منطقة القبائل قبل انهيار الامبراطورية الموحدية .

وما يبدو مشوشا ، لاول وهلة ، ليس الا نتيجة تطبيق معايير تحاليل ناقصة . عمليا ، والحياة السياسية في المغرب ليست معقولة اكثر من غيرها كما انها ليست اسوأ منها في الدول الاخرى شرط ان تبدأ من معايير تحليل ملائمة .

ان المحاولات المختلفة لتكوين الحكومات تتمثل تاريخيا بثلاثة محاور (اقطاب) متتالية : محور الوسط ، محور الشرق ، ومحور الغرب وهذا ما يشكل المبدأ الاول لتنسيق المراكز السياسية التي تكونت خلال هذه الحقبة .

والمدن التي اصبحت على التوالي عواصم لم تصبح كذلك بفعل الصدفة او هوى الذكريات ، بل ان ظهورها ناتج عن حاجة المركز السياسي الى التحرك من مركز الثقل الى منطقة نفوذه القبلي والتجاري وهذا ما يكوّن المبدا الثاني للتنسيق .

ان وجود تكوينات حكومية في المغرب قائم على ترابط عناصر ثلاثة : عصبية القبيلة المسيطرة ، القوة المالية ، والاشعاع الديني. هذه العناصر الثلاثة اوضحها ابن خلدون فقال : «ان بناء الملك يجب ان يقام على اساسين ، الاول الشوكة والعصبية القبلية والثاني المال الذي يؤمن رواتب الجند ويرعى حاجة الملك» .

هذا الترابط بين العصبية القبلية والتعاون الديني والقوة المالية يظهر واضحا في عملية تكوين الدول . **وكل التجارب الكبرى التنظيم الحكومي التي جرت في المغرب الاوسط ، جرت باسم حركة التجديد الديني:** امامة طاهرت والخوارج، امبراطورية الفاطميين والشيعة ، امبراطورية المرابطين والمالكية ، امبراطورية الموحدين والتومرتية. فالايديولوجية الدينيةتفسر وتدعمالاتجاهات الاتحادية الموجودة في المغرب . وفيها تتكشف التطلعات الى حياة سياسية ما فوق قبلية .

ان التنظيم القبلي يمثل مع ذلك الدور المحرك في كل مؤسسات البناء الحكومي . وراء تاسيس امامة طاهرت ، هناك مجموعة قبائل ثائرة تبعت الخوارج . ووراء تأسيس الامبراطورية الفاطمية هناك قبيلة قتامة . ووراء تأسيس امبراطورية المرابطين هناك قبيلة لمتونة ، ووراء امبراطورية الموحدين **هناك جماعة من قبائل الاطلس المغربي** .

ان هذا الحضور العام للتنظيم القبلي وراء عملية البناء الحكومي يدل على ان القبيلة والدولة ، بالرغم من تناقضهما ، ليسا متنافيتين واذا كان هناك حقا اختلاف فتجدر الاشارة الى ان التنظيم القبلي ، على مستوى معين من تطوره ، (التشديد على التفرقة القبلية الداخلية ودعم العصبية) **يحمل مشروع حكومي . هذا المشروع الحكومي تشرحه سيطرة القبيلة في قالب التجديد**

الديني الذي يكوّن وسيلة توحيد ما فوق قبلية .

ويعطي التنظيم الحكومي لنفسه المال اللازم لتحقيق هذا المشروع بالسيطرة على تجارة القبائل وبالسيطرة خاصة على طريق الذهب . كانت طاهرت تراقب طريق السودان بواسطة أمارات صغيرة ومدن الخوارج القائمة في الصحراء ، خاصة سجلماسة. فليس صدفة ان تولد الامبراطورية الفاطمية بالاستيلاء على طاهرت وسجلماسة التي كاد المهدي عبيد الله ان يؤسر فيها . هذا الحادث يعني بالفعل ان الفاطميين كانوا يراقبون هذا المركز الرئيسي لتجارة القوافل . ونجد سيناريو مماثلا في أصل الامبراطورية المرابطية . وقبل الانطلاق نحو المغرب العربي واسبانيا ، كان المرابطون يصطنعون ادوات قوتهم في افريقيا ما تحت الصحراء . فقد استولوا على اوداغست وتوسعوا نحو غانا مراقبين بذلك قسما كبيرا من تجارة الذهب . وهذه العملية نفسها تدخل في تكوين الامبراطورية الموحدية ، وقد بدأ الموحدون اولا بمراقبة طريق سجلماسة ـ فاس قبل ان ينطلقوا في الهجوم على امبراطورية المرابطين .

الحركة الدائرية للدولة

لكي نفهم عودة ظهور التناقض المستعصي بين الملك والعصبية، لكي نفهم ان الملك يولد من العصبية وكيف أنه ضروري ومستحيل ـ في آن معا ـ تصفية هذه العصبية وتأسيس قاعدة اجتماعية جديدة ، لكي نفهم هذا كله ، يتوجب تحليل المؤسسات الحكومية والمجموعات الاجتماعية السياسية المطابقة لهذه العصبية .

تتميز النظم الحكومية في دول المغرب تتميز باشتراك ثلاثة انواع من السلطة : **السلطة القبلية ، السلطة الدينية ، وسلطة**

الدولة بمعنى الكلمة وكذلك بالميل الى الاستقلال الذاتي لسلطة الدولة الذي يحبط في كلَ مرة ، وامبراطورية الموحدين هي خير مثال لهذه الظاهرة المزدوجة . وتظهر السلطات الثلاث واضحة في بدايتها في الحكومة الموحدية ، فبيت المهدي يمثل منبت سلطة الدولة ، ومجلس الخمسين يمثل استمرار السلطة القبلية في الدولة ، وجمهور الفقهاء يمثل السلطة الدينية .

تميز تطور الامبراطورية بفقدان تأثير السلطة الدينية والقبلية وبازدياد سلطة الدولة . وابتداء من حكم عبد المؤمن يتضح الاتجاه لالغاء سلطة القبيلة في الدولة ، فقد عمل على تعيين ابنه الاكبر وريثا له . وقد دامت سلطة الفقهاء مدة اطول . لكن ، ابان حكم المأمون ، قاطع الموحدون مذهب ابن تومرت . في نفس الوقت كان الموحدون يحاولون وضع قانون الحكم الوراثي ، وكانوا ينعمون بادارة اكثر اتقانا من ادارة الدول التي سبقتها . وقد حاولت هذه الدولة ان تضمن تسييرا مباشرا للامبراطورية لذا اوجدت هيئة من «الموظفين المديرين» ووزعت المهام السياسية ـ الادارية الهامة داخل العائلة الموحدية . وهكذا نصب عبد المؤمن ابناءه على الاقاليم الرئيسية .

هذه العملية الاستقلالية ستحبط ، مع انها وصلت ، مع الموحدين ، الى درجة أكثر بعدا من اي وقت اخر ، في تاريخ المغرب الاوسط في العصر الوسيط . وستصطدم باستحالة الدولة تنظيم جيش او ايجاد مال مستقل عن التنظيم القبلي الذي يشكل عنصرا جوهريا في تنظيم الدولة وان حاولت الحكومة ابعاده .

يكوّن الجيش مؤسسة رئيسية في دول المغرب ، لا شك في ذاك لان عليه يرتكز قسم كبير من دعم وتوسيع سيادة الدولة امام مختلف القوى المتنابذة وبالتالي هو الذي يضمن امان طرق القوافل ، واخيرا لان المغرب في العصر الوسيط كان في حالة حرب

شبه دائمة . وكونه في المواقع الاولى يرتكز عليه فتح اسبانيا وجزء من اوروبا . والمغرب هو الذي يضمن الدفاع عن الممتلكات الاسبانية وهو اخيرا هدف للضربات ضد الهجمة المسيحية في البحر المتوسط .

كان للجيش اصل مزدوج . دول المغرب تستخدم الرقيق جنودا وتستعين بالمرتزقة الاجانب ، المسلمين والاتراك في اغلب الاحيان كذلك الاوربيين المسيحيين . هؤلاء الجنود يشكلون الحراسة الشخصية للامراء وكبار القوم ، وللشرطة . لكن معظم الجند كانوا من المتطوعين القبليين وهؤلاء خاصة يقودون المعارك ضد القوى المسيحية .

هذه الازدواجية في تجنيد الجيش تظهر مجددا على مستوى تنظيمه . فالقادة ، في اغلب الاحيان ، يعينون من خارج التنظيم القبلي ، وهم اعضاء السلالة الحاكمة ، ورؤساء الفرق اللامعين ، وهم احيانا من المرتزقة المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام . وفي الاساس ، باستثناء بعض الهيئات المختصة مثل البحرية ، ينتظم الجيش في معظمه حسب التنظيم القبلي وكل مجموعة جند حافظت على استقلالها الذاتي . في الاستعراضات وميادين القتال ، كان الجند منظمين حسب ترتيب يبين حدود التغييرات التي نجح الموحدون في فرضها على جيشهم : حرس الخليفة ، الموحدون ، الهلاليون ، زناته ، المرتزقة والمتطوعون . وضرورة تجهيز جيش منظم والبقاء على التنظيم القبلي استدعيا التخصص الحربي لبعض القبائل مثل «قتامة» في عهد الفاطميين ، و«الهلاليين» في عهد الموحدين ، هذا التخصص سمح للدولة بأن تعد الجنود باستمرار دون ان تخضعهم لها لانهم يحافظون على استقلالهم في التنظيم . وهكذا ، بعد ان كان الجيش اداة قوة الدولة في فترة التوسع يصبح ، في فترة الانكماش ، عامل اغلال قوي .

منابع الموارد المالية ثلاثة : **الغنيمة** المحققة من الحروب ومن التوسعات نحو افريقيا ما تحت الصحراء ونحو البلاد المسيحية. **والارباح** التي تتحقق من تجارة القوافل الكبرى او من البحر ، والضرائب المأخوذة من القبائل الفلاحية ــ الرعوية والحرفيات ومن التجارة الخارجية . واذا كانت غنيمة الحرب منبع المداخيل المباشرة والعشوائية فان تدفق الاموال الآتية من التجارة مطبوع بتغير الظروف . لكن الضريبة على الانتاج الفلاحي ــ الرعوي والحرفي فقط تمثل الاساس للمداخيل المنظمة والثابتة . وفي الحقيقة ظهر عكس ذلك ، اذ ان هذا النوع الاخير من الواردات المالية لم يمون بصورة ثابتة صناديق دول المغرب .

في هذا المورد الثلاثي تتصرف الدولة دائما ، بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، بالتحالف مع التنظيم القبلي . في غنائم الحرب ، يكون التحالف واضحا ، فبعد دفع رصيد المرتزقة تقسم الغنيمة بين القبائل التي شاركت في المعارك وصناديق الدولة . والتحالف يظهر واضحا على مستوى تجارة القوافل الكبرى . والعائدات تقسم بين الدولة (حق المداخيل) والقبائل المرافقة والارستقراطية المتاجرة ، لذا صار من الطبيعي ان نرى اعضاء السلالة الحاكمة ، وبعض الارستقراطية القبلية وكبار التجار ينسقون الغزوات التجارية مع بعضهم البعض .

هذه المحالفات تجعل ابتزاز فائض الفلاحة ــ الرعوية بواسطة الضرائب القاسية صعبا او قليل الضرورة . فامامة طاهرت والمملكة الزيرية والمملكة الحمادية عاشت في الاساس من الحقوق على التجارة ومن الضرائب القرآنية والضرائب المتوجبة على غير المسلمين . وعندما كانت الدولة تقرر ان تثقل او تعمم جلب الضرائب وخاصة الضريبة العقارية (الخراج) كانت تصطدم بحاجز المشاعيات القبلية .

هذا الحاجز لم يكن لدى اي دولة مغربية وسطى وسيلة

لتحطيمه وايجاد ادارة مالية تاخذ على عاتقها مباشرة جمع الضرائب . واذا وجد تنظيم حكومي مالي على المستوى المركزي فان الدولة لا تتدخل الا من خلال القبائل على المستوى المحلي . ولما كانت غير قادرة على الغاء التحالف مع القبائل ، فان دولة المغرب عززت محالفاتها مع بعض القبائل المكلفة بجمع الضرائب من قبائل اخرى . وجمع الضرائب كان يتم – باستثناء المناطق الخاضعة مباشرة للمراكز الحكومية – كل مرة بفعل العنف المسلح. لهذا السبب كان الاختصاص العسكري في بعض القبائل يتضاعف باختصاص مالي . ولهذا السبب ايضا لا يكون لجمع الضرائب سوى نتائج احتمالية لان عملها يتعلق بتوازن القوى بين القبائل التي تجمع الضرائب والقبائل التي يجمع منها ، وبين الدولة والقبائل التي تجمع الضرائب . **ان التناقض بين التنظيم القبلي والتنظيم الحكومي ، والذي هو تناقض خارجي وتناقض داخلي في الدولة في آن معا ، يشكل اساس تطورها .**

ان وجود تنظيم حكومي يعبر على المستوى السياسي عن تطور العلاقات الاجتماعية للانتاج والتبادل (وخاصة تجارة القوافل وتجارة البحر الكبرى) الذي يتجاوز الاطار القبلي . الا ان وجود هذه العلاقات الاجتماعية الجديدة لم يتكشف في تكوين جماعات جديدة نوعا متجانسة الى حد كاف ، قوية وقادرة على تكوين اساس اجتماعي تستطيع الدولة من خلاله التخلص من علاقاتها بالقبائل وهدم علاقات القرابة . وفي الحقيقة ، ان فئة اجتماعية اقتصادية جديدة ، هي فئة كبار التجار ، اصبحت ذات اهمية كبيرة. لكن هذه الارستقراطية المتاجرة بقيت مرتبطة بالارستقراطية القبلية ارتباط تناقض غير عدائي . تناقض لان هاتين المجموعتين تحملان علاقات اجتماعية مختلفة ، وغير عدائي لان الارستقراطية المتاجرة المتمحورة حول التجارة الدولية تستطيع ان تتطور دون ان تهدم الارستقراطية القبلية . وبينهما ، يوجد تناقض وتفاعل

في آن ، فالارستقراطية القبلية مشاركة في التجارة الكبرى والارستقراطية التجارية مشيدة المزارع الكبرى حول المدن . هذا هو التناقض غير العدائي بين الارستقراطية التجارية الذي يحدد الحركة الدائرية لدولة المغرب في العصر البربري – الاسلامي .

في حقبة التوسع العسكري والتجاري تمثل الايديولوجيا الدينية قوة متجانسة تسمح بتوحيد علاقات اجتماعية غير متجانسة في اطار الدول التيوقراطية المسيطرة (طاهرت ، الامبراطورية الفاطمية ، وامبراطوريات المرابطين والموحدين في بداياتها) .

في حقبة الاستقرار والانطواء تفقد هذه الايديولوجية الدينية فعاليتها الموحدة وتصبح هي نفسها عاملا للتجزئة . ان محاولة انتقال الدولة من تنظيم ثيوقراطي الى تنظيم ملكي سلالي هي رد على هذا التوحيد الديني الفاشل . لكنها تفشل بدورها لان السلالة ، المحرومة من امتيازها الديني ومن قاعدة اجتماعية ترتكز عليها سلطتها ، لا تكون في الجوهر الا ارستقراطية قبلية مثل سواها ويمكن ان تحل محلها ارستقراطية قبلية اخرى .

هذه الحركة الدائرية لا تعني هدم وبناء الدولة من جديد لكنها ببساطة تعني تغيير النخبة الموجّهة وكل فرقة جديدة موجهة لا تعيد تكوين التاريخ الى نقطة الصفر ، بل تقيم في البنى السياسية – الادارية الموجودة التي تكتفي بتعديلها . وقد اخذ الفاطميون على عاتقهم بناء الادارة وايجاد الموظفين في مملكة الاغالبة . والموحدون ، بدل تحطيم البيروقراطية الملكية المرابطية حاولوا على العكس زيادة فعاليتها وبناء مدن جديدة لا ينبغي ان يخدعنا . بل يعني في الغالب نقل السكان اي توزيعهم في مجال علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية موجودة سابقا. فالحماديون بنوا «القلعة» هادمين «مسيلا» وناقلين اهاليهما .

هذه الحركة الدائرية ، المرتبطة بازدواجية العلاقات الاجتماعية التي تؤسس الشكل الخاص للسلطات السياسية ، لا تمنع الدولة

من ان توجد باستمرار . وهي تحدد فقط طبيعة هذه الدولة والشكل اللازم لتتابع التشكيلات الحكومية .

اضف الى ذلك ، ان هذه الحركة الدائرية تطابق حقبة تاريخية معينة لا تشمل الحقبة الوسيطة . وتتابع الحكومات المتجددة — على فترات زمنية منتظمة — وفقا للارستقراطيات القبلية التي تتحول الى سلالات ، توقف في القرن الرابع عشر . وشكل الدولة هذا مرتبط بتواجد التنظيم القبلي والتجارة الكبرى. هذا التواجد هو الذي يسمح للدورة بالظهور ثانية . ولما كان المغرب الاوسط مفترق طرق التجارة الكبرى في ذلك العصر ، فان ضرورة مراقبة هذه الطرق وامكانية نيل العائدات الهامة تكونان اساس وجود الدولة المستمر . **والدورة التي يجتازها كل تكوين حكومي لا تتطابق فقط مع تطور تناقضه الاساسي بل تتطابق بشكل خاص ، مع اللحظة لاتي تدخل الدورة فيها مرحلتها الحرجة ، تتطابق مع تغير الحلقات التجارية** . ان نقل مركز الثقل للدول يكون مرتبطا في آن ، بالاساس القبلي للارستقراطية الجديدة التي تتكون في الدولة وبضرورة متابعة التغيرات التي تعين الطرق التجارية .

ازمة القرن الرابع عشر

ان التحولات التي تؤثر على طرق الذهب تكوّن العنصر المحرك لأزمة القرن الرابع عشر . ان محور الشمال ــ الجنوب خسر من اهميته لمصلحة محور الشرق ــ الغرب . ودولة المماليك الحاكمة في القاهرة بسطت سلطتها على اعالي وادي النيل مما آتاح لهـا الوصول الى المحيط الاطلسي عن طريق منطقة الغابات أي الاحتكاك مباشرة بالممالك السودانية ممونة الذهب . ومحـــور الشمال ــ الجنوب المتجه نحو البحر المتوسط خسر شيئا من اهميته بسبب فتح التجار المسيحيين لطرق جديدة : طرق المحيط الاطلسي . كذلك حاول «الديباويون» Diepois والبرتغاليون الوصول الى المناطق الافريقية منتجة الذهب . في نهاية القرن الرابع عشر تقدم البرتغاليون في عرض الشواطىء الافريقية وفي بداية القرن الخامس عشر توصلوا الى اجتذاب قسم من تجارة الذهب نحـو خليج غينيا . وهكذا بدأ المغرب الاوسط يفقد دوره كوسيـط مميز مما ادى الى تغيير البنيات الاجتماعية الاقتصادية تغيـيرا

كبيرا ودائما . وابتداء من هذه الحقبة سيبتعد المغرب عن اي تجارة في المتوسط تقريبا وستقوم التجارة على عاتق التجار الاوروبيين اصحاب المخازن في اغلب الموانىء المغربية . هذا الوضع يشرح ولادة «السباق» المغربي وقاعدته الاولى ستكون على ما يبدو بجاية .

انحط الاقتصاد الحضري والصناعة الحرفية اصبحت في خطر واصبحت موانىء المغرب تصدر اكثر فأكثر المواد الاولية الزراعية وتستورد منتوجات الصناعة الحرفية الاوروبية . واذا كان الوضع مختلفا لمدينة مثل تلمسان وتجارتها الموجهة بصورة رئيسية نحو افريقيا ما تحت الصحراء ، فالجدير بالذكر ان قسما من نشاطها يقوم في اعادة تصدير المنتجات الاوروبية .

هذا الاستنزاف لارباح تجارة القوافل أدى الى تغيير علاقات قبائل البدو بالارستقراطية المتاجرة . وصارت القبائل النهابة احيانا تلاقي القوافل التجارية المرافقة واحيانا تتركها في حالها واصبح «السطو» ظاهرة بنيوية مساوية لظاهرة «السباق» في تجارة المتوسط .

ان اهمية ازمة القرن الرابع عشر الاجتماعية الاقتصادية لا تأتي من حدتها الحاصلة وقت نشوئها . واذا **القينا نظرة الى الماضي ، تظهر الازمة كنقطة انطلاق ، نقطة بداية انحطاط المغرب الطويل المدى ، ونقطة بداية التبعية التجارية للتاجر الراسمالي الاوروبي** . هذا الانحطاط هو نتيجة لعلاقة نظامين اجتماعيين اقتصاديين مختلفين نوعيا ، أدى الى تصلب وتجميد التنظيم الاجتماعي ــ الاقتصادي في المغرب .

ومن الخطأ ان نصور الازمة التي لحقت بالمغرب الاوسط في القرن الرابع عشر بشكل كارثة قلبت بشراسة البنيات الاجتماعية . هذه الازمة هي بالاحرى انحطاط بطيء تخللته محاولات نهوض لم تؤد الى نتائج حاسمة . وتدريجيا ، وبالرغم من الهجوم المعاكس

الذي كان يجمد الوقت مؤقتا ، وضع الراسمال التجاري الاوروبي جزءا مبهما من تجارة المغرب تحت مراقبته .

كيف نفهم هذا الانحطاط ؟

ان قوة المغرب الاوسط ، منذ القرن التاسع ، تأتي من المكانة التي يحتلها في الشبكة التجارية للعالم الاسلامي . وازدهاره ينتج عن اشعاعه التجاري ودوره كأرض «ترانزيت» أكثر مما تنتج عن ارتفاع مستوى الانتاج والفيض الزراعي . والارباح التي تجنى من التجارة تسمح للارستقراطية الحضرية بعدم سحب الانتاج الزراعي وبجمع القبائل في التجارة الكبيرة . وانتاج البادية ليس وحده اساس ثروة المدن ، ومفهوم «البادية» يشمل واقعا اكثر تعقيدا من البداوة البسيطة ، وقاعدة النظام الاجتماعي هو القبيلة . والبادية تتدخل برجالها (المرافقين للقبائل) في اقتصاد الحاضرة اكثر مما تتدخل بفوائضها الزراعية . فالتجارة الكبرى لا تهدم التنظيم القبلي واشكال الملكية والانتاج الذي يتطابق معها بل تضمه الى تطورها . وما يصنع قوة المغرب الاوسط خلال فترة التوسع سيصنع ضعفه ابان تحطم اقتصاده لصالح التنافس الاوروبي .

ان التجار الاوروبيين الذين سيجابههم المغاربة آتون من تنظيم اجتماعي آخر ، **الاقطاعية** . ولفهم تفوقهم التاريخي يجب ادراك المكانة التي يحتلونها داخل **هذا** النظام الاجتماعي – الاقتصادي الذي ظهر في اوروبا الغربية خلال القرن العاشر والحادي عشر . كان النظام الاقطاعي مرتكزا على **الارض** . والوحدة الاجتماعية – الاقتصادية الاساسية هي الاقطاعة التي تجمع الفلاحين والسيد . والارض غالبا **ملكية سامية** للسيد ومقابل حق التمتع بقطعة ارض

تابعة للاقطاعية ، كان الفلاحون يعملون في هذه الارض ويدفعون حقوقا متنوعة نقدية او عينية . **والارستقراطية في اوروبا هي اولا ارستقراطية كثيرة الاملاك** ، ارستقراطية اسياد تحتكر جزءا من الفائض الاقتصادي لدى طبقة الفلاحين . هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي ـ الاقتصادي يسمح بظهور تطور هام في قوى الانتاج في الريف . خلال القرن الثاني عشر ، شهدت اوروبا حركة احياء اراض جديدة وظهرت اختراعات في ادوات الانتاج . والمنجل الطويل احتل مكان المشذب في الحصد ، والمحراث ذو السكة المعدنية حل محل المحراث البدائي تدريجيا . وسمح انتشار طاحونة الماء بتوفير القوة الانسانية والحيوانية وارتفع الانتاج الزراعي واتجهت كل منطقة نحو تخصص معين .

داخل هذا النظام الاقطاعي ، كان دور التاجر ربط الاقطاعات المختلفة بعضها ببعض والمدن بالارياف . وصار التاجر يشتري من الاسياد او ألفلاحين فائضهم الزراعي ويبيعونهم منتوجات الصناعات الحرفية المدنية والمنتوجات الفاخرة الآتية من الشرق. هذه المبادلات التجارية اتسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكانت المعارض تجمع تجار كل اوروبا ومدن البحر المتوسط المشاركة في التجارة مع المغرب العربي والشرق الاسلامي .

في علاقاتهم مع العالم الاسلامي ، كان التجار الاوروبيون في البداية ، في حالة تلمذة ، يتدربون على التقنيات التجارية العربية وكانت ألنهضة النقدية في اوروبا ناتجة قبل كل شيء عن «الذهب الاسلامي» ألذي كان التجار المسيحيون يحصلون عليه مقابل موادهم الاولية (الخشب والمعدن الخام ...)

لكن التلامذة اصبحوا بعد قليل معلمين . هذا الانقلاب في العلاقات سينتج عن المكانة المختلفة التي تحتلها التجارة الكبيرة في اقتصاد المغرب واذا ادى هبوط التجارة المغربية الى انحطاط المجتمع كله فالوضع يختلف في اوروبا . **ان التجارة الطويلة الامد**

مع العالم الاسلامي لا يشكل سوى نقطة متقدمة في الاقتصـــاد الاقطاعي وان اي هبوط محتمل لا يؤثر اساسا على قاعدته اي امتصاص الفائض الزراعي . اضف الى ذلك ان الطبقة المتاجـرة الاوروبية ، عندما تضعف اوضاعها في تجارة المتوسط باستطاعتها الالتفات الى التجارة الداخلية او استثمار راسمالهـــا في شراء الاقطاعات . وامكانية **الانطواء** هذه هي التي تشكل قوة التجـارة الاوروبية الطويلة الامد وغيابها هو الذي يضعف مثيلتها المغربية .

وقد ظهرت محاولات لاعادة تركيز النشاط الاقتصادي على الفلاحة الرعوية . وقد حاول الموحدون والوديديون خاصة وضع الارياف تحت سيطرتهم ومقايضة فائض البادية الاقتصادي بأرباح التجارة الطويلة الامد ـ ولو جزئيا ـ **ونظام الاقطاع يرمز جيدا الى هذه المحاولة والى اخفاقها** . والاقطاع هو حق ينعمه الملك على بعض الاكابر ورؤساء القبائل اذ يحق لهؤلاء جمع ضرائب منطقة معينة لحسابهم الخاص ويعطون بالمقابل جزءا من مدخولهم ويقدمون الخدمة العسكرية . هذا الاقطاع يتعلق بتطبيق نظام من النـــوع الاقطاعي . هكذا المشروع لا يؤدي الى شيء ويظهر غير قادر على كسر البنية القبلية التي اثرت على النظام المغربي على مدى قرون. ونظام الاقطاع لا يساعد على تشكيل اقطاعات بل على تشديـــد الخلافات بين القبائل وتقوية دور الارستقراطية القبلية .

والارتباط بين التجارة الطويلة الامد والبنية القبلية في النظام المغربي سيستمر بالسير ولكن تراجعا . وعجز الارستقراطيــــة التجارية عن اخضاع البادية بصورة دائمة يعيد لها تبعيتها للتجارة الاوروبية . واعادة توزيع الثروات بين البادية والحاضرة اصبحت تاخذ أكثر فأكثر شكل الجلب «الوحشي» (النهب والسطو) وهذا ما ساعد على ضعضعة الحياة الاقتصادية كما ساعد على تعزيـــز وصلابة البنية القبلية .

ان الازمة الاقتصادية التي اصابت المغرب الاوسط منذ القرن الرابع عشر كان في الوقت نفسه ازمة دولة . فسيطرة التجار الاوروبيين على تجارة المتوسط وانفتاح طرق الاطلسي التي نزعت دور المغرب كوسيط ، لن تسمح للدورة بالعودة ثانية وستكوّن ارضية صلبة لأزمة اجتماعية ـ اقتصادية . ولكي نفهم هذه الازمة يجب اعادة وصفها بالنسبة للجوانب الجديدة التي يتخذها الصراع بين العالمين المسيحي والاسلامي .

وقد ترافقت هجمة الاوروبيين التجارية بهجمة سياسية عسكرية من الدول المسيحية وهذه الاخيرة كانت تطرد بلا رحمة مسلمي اسبانيا وتستقر في اقليم المغرب العربي .

ومهاجمة الدول المسيحية لاراضي المغرب والنتائج التي احرزتها ناتجة عن اسباب بنيوية . فالمدن التجارية الايطالية او الدول الملكية الفرنسية والاسبانية لديها قاعدة اجتماعية اكثر صلابة وتجانسا من دول المغرب . هذه القاعدة الاجتماعية سمحت للدول المسيحية بتهيئة جهاز حكومي قادر على تعبئة طاقات المجتمعات التي يسيطرون عليها . علاوة على ذلك ، فتقسيم العالم الاسلامي وتفتيت المغرب السياسي يقابلهما تضامن قتالي يجمع الدول المسيحية تحت راية البابوية في شكل الحروب الصليبية.

في غضون ذلك ، ظهر التدخل الاوروبي في المغرب لاول وهلة ، كنتيجة لهزيمة المغامرة العسكرية الدينية التي قام بها المسيحيون في الشرق اذ ان القرن الرابع عشر يشهد في الحقيقة فشل الحروب الصليبية وظهور قوة اجتماعية ـ سياسية جديدة: الاتراك العثمانيون الذين سيحاولون اعادة توحيد القطع المتناثرة من العالم الاسلامي في اطار الامبراطورية الجديدة .

انطلاقا من الاناضول بدأ العثمانيون فتح اوروبا الوسطى .

عام ١٤٥٣ نسف المتراس المسيحي الذي تمثله اسطمبول ، وامتدت الامبراطورية العثمانية باتجاه المحيط الادرياتيكي بعد سقوط البندقية عام ١٤٨٠ وباتجاه المشرق : فتح العراق سوريا فلسطين ومصر . وهكذا تظهر انتصارات المسيحية في المغرب العربي كانتقام لهزيمتها في المشرق امام العثمانيين . بعد ان قطع الهجوم العثماني طريق الشرق ، استطاعت المسيحية تجمع كل قوتها باتجاه المغرب الذي يمثل الحلقة الاضعف في العالم الاسلامي بسبب قربه من قواعد الهجوم المسيحية . ويكون التأصل السياسي العسكري الاوروبي في المغرب قد اسرع في حصول ازمة الدولة التي ارتدت ثلاثة أوجه رئيسية .

منذ نهاية القرن الرابع عشر وخاصة الخامس عشر سنشهد تقسيما لملكتي الوديديين والحفصيين ، طرابلس وبجاية وقسطنطينة تتحرر من الحفصيين . «وهران» و«تناس» تتحرران من الوديديين . تفتت الممالك هذا ينتهي بخلق او تحريك اشكال اخرى من التنظيم السياسي . على الساحل اوجدت مدن جمهورية تنهمك بالقرصنة . امارات مستقلة نوعا ما تتشكل ، مثلا شيخ قسطنطينة الحفصي في منطقة «عنابة» و«قلّ» . نشهد ايضا انطواء النظام القبلي . فقبائل الورسينس تنتظم ضمن أتحاد مستقل ، ومنطقة القبائل تخضع لملك «كوكو» . في الغرب ، تعلن الجماعات الدينية حقها كوريث للسلطة السياسية . اما في الصحراء المنقطعة أقتصاديا عن المغرب الشمالي فاننا نشهد اعادة بنيان سياسي يطابق توجه الطرق التجارية الجديد نحو المحيط الاطلسي والشرق . واحات «الفجيج» تتجمع لتؤسس دولة مستقلة . «المزاب» و«الهدنا» تصبحان تحت سيطرة الهلاليين بينما في «توغورت» تتكون دولة جديدة تبسط سيادتها على واحات وادي «ارهير» .

المراكز الحكومية التي استمرت اصبحت عاجزة عن مواجهة هذا التفتيت ولا تملك وسائل مقاومة الضغط السياسي

والاقتصادي الذي تمارسه القوى المسيحية . ومملكتا الوديديين والحفصيين بداتا تستمدان عائداتهما من ضريبة الـ ١٥ بالمئة التي يدفعها التجار المسيحيون . تضاف الى هذه التبعية المالية التي جعلت دول المغرب تقوم بدور الوكلاء ، تضاف الى هذا كله بداية تبعية سياسية مباشرة .

عام ١٥١٢ الملك الوديدي محمد الخامس قبل ان يكون واليا لملك اسبانيا .

تحولت الغارات الاوروبية وخاصة الاسبانية الى احتلال دائم . وترتبت المرافىء التي تم احتلالها بشكل قلاع وضعت فيها الحاميات و«وهران» كانت اهم هذه «المراكز الاسبانية» .

وبدخوله في امبراطورية الاتراك الاسلامية وجد المغرب الطاقة اللازمة لابعاد الاسبان . وتدخل الاخوة باربروس عام ١٥١٦ في مدينة الجزائر هو مقدمة اندماج المغرب الاوسط بالامبراطورية العثمانية . وبادارة العثمانيين سيصفي المغرب الاوسط المراكز الاسبانية وسيتوحد المغرب في اطار حدودي واضح هو نتيجة ماضي طويل من المنافسة بين الحفصيين والوديديين والمرينيين

اسماء الاعلام والاماكن والتعريف ببعض المصطلحات الواردة في الكتاب

ماسينيسا Massinissa

ملك النوميديين . ولد عام ٢٣٨ ق.م ومات حوالي عام١٤٨ . انتصر على «سيفاكس» وضم اراضيه . كان حليفا لروما ضد قرطاجة واستفاد من الحروب القرطاجية في تأسيس دولة قوية .

لاتيوم Latium

منطقة في وسط ايطاليا على شاطىء البحر التيراني تقع بين اتروريا وكامبانيا .

جوبا الاول Juba 1er

ملك نوميديا ، ابن هيمبسال الاول . مات عام ٤٢ ق.م.

استغل خلاف «سيزار» و«بومبي» كي ينفصل عن روما . هزم على يد سيزار في «تابسوس» وانتحر ، وتحولت مملكته الى اقليم روماني .

جوغورتا Jugurta

ملك نوميديا ولد حوالي عام ١٥٤ ق٠م٠ خاض حربا طويلة على الرومان وهزم جيوشهم مرات عدة . لكن عمه «بوخوس» ملك موريتانيا سلمه للرومان عام ١٠٤ ق٠م ومات في السجن .

قسطنطينة Constantine

كان اسمها «سيترزا» ، وبقيت عاصمة ملوك نوميديا لمدة طويلة لكنها انفصلت عن المملكة بعد الغزو الروماني .

دونات Donat

اسقف قرطاجة المنشق ، مؤسس «آلدونانية» . ويعتقد اتباع هذا المبدا انهم الورثاء الوحيدون للرسل . ظهرت بدعته عام ٣١٦ وتسببت في انقسام الكنيسة الافريقية خلال قرن من الزمن .

زاما Zama

مدينة في نوميديا . هزم فيها «سيبيون» «هانيبعل» واجبر

قرطاجة على الاعتراف بهزيمتها وذلك في نهاية حرب قرطاجـــة الثانية عام ٢٠٢ ق.م.

الجزائـر Alger

معرض متواضع للسلع القرطاجية ثم الرومانية (ايكوسيوم). دمرت المدينة اثر سلسلة من الغزوات . واعاد احياءها «بولوجين» الامير الزيدي حوالي عام ٩٨٠ فأصبحت مركزا تجاريا فعالا على اتصال بكل موانىء البحر المتوسط .

الاغالبـة Aghlabide

سلالة عربية في المغرب . اسسها «ابن سليم الاغلبي» بين عامي ٨٠٠ و ٩١٠ وكانت عاصمتها «القيروان» . وفي ايـــام العباسيين حكمت هذه السلالة تونس الحالية وغزت صقلية .

عبد المؤمن Abdel Moumen

اول خليفة من سلالة «الموحدين» . ولد عام ١١٠٠ ومات عام ١١٦٣ . كان اول تابع لابن تومرت الذي اعطاه كافة السلطات . وقد اصبح عبد المؤمن خليفة عام ١١٣٠ .

عبد الوديد Abdel Wadide

اسم اطلق على بني زيان ، حكام تلمسان خلال القرنين الثالث

عشر والرابع عشر . وقد تزامنت مملكتهم مع مملكة «المولويا» في «الوادي الكبير» واضمحلت عام ١٣٣٧ .

كبيليا **Kabylie**

منطقة جبلية واسعة في الجزائر ، تمتد بين سهل الجزائر وسهل عنابة .

مسيسيسلس (مملكة) **Massaessyles**

شملت المغرب الشرقي وثلثي الجزائر الحالية .

ماسيل (مملكة) **Massyle**

شملت الجزائر الشرقية وتونس الغربية . ونظرا لكون رقعتها اصغر من رقعة «مسيسيسلس» فقد كانت اكثر اتحاداً .

ميسيبسا **Micipsa**

خليفة «ماسينيسا» . كان على علاقة جيدة بروما ومات عام ١١٨ ق.م.

نوميديا **Numidie**

اسم اطلقه الرومان على المغرب الاوسط .

سالدي Saldae

«بدجالا» حاليا .

سيغا Siga

عاصمة «سيفاكس» (حاليا «تاكمبريت») .

سيفاكس Syphax

ملك مسارسيل (٢١٣ – ٢٠٢ ق.م.) ، اول زعيم بربري يصبح ملكا حقيقيا وهو اول من سك نقودا .

تاكفاريناس Tacfarinas

جندي في الجيش الروماني ، انشق وقاد عصيانا استمر سبع سنوات (١٧ – ٢٤) .

الزيريون Zirides

سلالة حكمت المغرب (٩٧٢ – ١١٤٨) عاصمتها تونس . مؤسسها يوسف بولوجين وكان قائدا ارسله الخلفاء الفاطميون الى المغرب واعلن استقلاله عام ٩٧٢ .

قصيلة Koseila

زعيم بربري تصدى لقدوم الجيوش العربية الاسلامية الى المغرب الاوسط . عام ٦٨٦ هزم وقتل .

اوجدا Oujda

مدينة حدودية بين المغرب والجزائر .

الطاوه (مملكة) **Altava**

اول مملكة بربرية تأسست في القرن الثالث الميلادي تقع الى غرب المغرب الاوسط ، حكمها «ماسونا» الذي سمى نفسه «ركس جنتيوم موروروم و روماوروم» .

أبولي دي مادور Apulee De Madaure

ولد حوالي عام ١٢٥ ق.م. وهو بلا شك واحد من كبار كتاب عصره . ألف كتبا عديدة اشهرها «الحمار الذهبي» .

البربر Berberes

اسم أطلقه الرومان على السكان المحليين في المغرب وكان اسمهم في السابق «ايمازيغن» .

جدار (مملكة) Djeddar

تشكلت هذه المملكة اثر تراجع السيطرة الرومانية في منطقة «تيارت» وذلك ابتداء من القرن الخامس . بقي منها بعض الآثار.

فرونتون Fronton

ولد في «سيترا» في بداية حكم «تراجان» . لمع في السياسة والادب واعتبر واحدا من اساتذة الخطابة والفصاحة .

فيرموس Firmus

زعيم بربري من منطقة «جرجورة» ؛ حمل عام ٣٧٢ لواء الثورة . وقاد ٢٠،٠٠٠ رجل وحقق انتصارات عديدة وهزم اخيراً عام ٣٧٥ .

جيلدون Gildon

شقيق فيرموس . كان في البداية حليفا لروما التي جعلته «كونت» افريقيا عام ٣٩٧ . لكنه تمرد عام ٣٩٥ واطلق نداء الى القبائل البربرية والى «الدوناتيين» . هزمه الرومان وانتحر في السجن .

ليم Limes

تخم حدودي لحماية المناطق المغربية التي تحتلها روما من غزوات قبائل البربر «المستقلة» .

برقة Barca

عائلة مسيطرة في قرطاجة وخاصة أبان الحروب القرطاجية . وقد اشتهر «اميلقار» و «هنيبعل» بانتصاراتهما على الرومان .

بيسكرا Biskra

كان اسمها في العهد الروماني «فيسيرا» ، وتقع على انحدار جبال اوراس نحو المتوسط ، عاصمة الواحات المنتشرة عند قاعدة الاطلس الصحراوي .

عنابة Annaba

كان اسمها في العهد الروماني «هيبوريجيوس» ، وتقع قرب مصب «السيبوس» .

بدجاية Bedjaia

كان اسمها «سالدي» في العهد الروماني ، وتقع بين مصب

«وادي الساحل» وراس «كاربون» ، كانت عاصمة السلالة الحمادية .

بيزنطة Byzantin

امبراطورية يونانية في الشرق تاسست ابتداء من عام ٣٣٠ ؛ وكانت عاصمتها القسطنطينية (بيزنطة) .

مزاب M'zab

مجموعة واحات في الصحراء الشمالية .

باربروس Barberousse

اسم اطلقه المؤرخون الغربيون على قرصانين تركيين في القرن السادس عشر ، الاول واسمه «اروج» اعلن نفسه حاكما على تلمسان عام ١٥١٨ ، وخلفه شقيقه «خير الدين» .

اوراس Aures

جبال تقع في الجزائر جنوب قسطنطينة والمرتفعات العليا .

الاطلس Atlas

سلسلة جبال تشكل بنية المغرب ، بين الصحراء ، الاطلسي والبحر المتوسط .

الموحدون Almohades

سلالة بربرية جاءت بعد «المرابطون» وحكمت المغرب ونصف اسبانيا من عام ١١٤٧ حتى ١٢٦٩ .

ابن غنية Ibn Ghaniya

نظم ثورات عديدة في المغرب الاوسط ابان حكم «الموحدين».

المأمون Al Mamoun

سلطان حمادي .

ابن تومرت Ibn Toumert

مصلح ديني اطلق على نفسه لقب «المهدي» واسس امبراطورية الموحدين ومات عام ١١٣٠ .

ابن تاشفين **Ibn Tachfin**

خليفة ابن ياسين في ادارة امبراطورية «المرابطين» .

قلعة بني حماد Kalaa Des Beni Hammad

اول عاصمة للحماديين تقع على حافة المرتفعات المشرفة عل سهوب «الهودنا» .

قتامة **Ketama**

قبيلة كبيلية كانت وسيلة الفاطميين في التوسع .

مغراوة **Maghraoua**

قبيلة زينيتية في الغرب المغربي .

بني عفران **Beni Ifren**

قبيلة زينيتية في ألغرب المغربي .

عشير **Achir**

اول عاصمة للزيديين وتقع عند التقاء السهوب بالتل عل

منفذ وديان «ايسر» و «شليف» .

سيجلماسة **Sidjilmassa**

واحة صحراوية كانت احدى نهايات طرق الذهب .

ابن طفيل **Ibn Tofail**

طبيب وفيلسوف عربي . ولد في اسبانيا في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ومات في مراكش عام ١١٨٦ . كان طبيب السلطان الموحدي عبد المؤمن .

ابن خلدون **Ibn Khaldoun**

مؤرخ مشهور . ولد عام ١٣٣٢ في تونس ، ومات في القاهرة عام ١٤٠٦ . اشهر مؤلفاته «كتاب العبر» الذي يتحدث فيه عن تاريخ ما قبل الاسلام وعن الامبراطوريات الاسلامية في المغرب وعن تاريخ البربر .

كاهنة **Kahena**

اسمها الحقيقي «ديهية» كانت تحكم قبيلة جراوة في الاوراس في القرن السابع تصدت لدخول الجيوش العربية الاسلامية لكنها هزمت عام ٦٩٨ .

القيروان Kairouan

مدينة اسسها «عقبة» عام ٦٦٩ واصبحت عاصمة الاغالبة عام ٨٠٠ .

الخوارج Kharedjisme

شيعة اسلامية صارمة قامت في جنوب نهر الفرات ولعبت دورا هاما في المغرب ابان النزاع على السلطة مع الامويين .

المهديـة Mahdia

اسسها المهدي عبيد الله عام ٩١٦ مكان مدينة فينيقية قديمة، واحتلها النورمنديون القادمون من صقلية في القرن الثاني عشر ، وهي عاصمة الفاطميين .

تاركين Tarquins

سلالة رومانية حكمت روما قبل «الجمهورية» .

التـل Tell

منطقة جبلية في المغرب تمتد على طول المتوسط ويفصلها عنه شاطىء يسمى «الساحل» .

تلمسان Tilimsen

مدينة قديمة اعيد بناؤها في القرن الحادي عشر على يد الزناتيين وكانت احدى عواصم المغرب الاوسط في العصور الوسطى .

تينس Tenes

كان اسمها كارتنا في العهد الروماني ، وتقع على ساحل الداهرة .

ابن رستم Ibn Rostom

خارجي من اصل فارسي ، اسس دولة طاهرت .

ميسره Maisara

كان يعمل سقا ، وهو احد قادة العصيان الخارجي الذي بدا عام ٧٤٠ .

ابو يزيد Abou Yazid

لقبه «الرجل ذو الحمار» قاد عصيانا خارجيا ضد الفاطميين، هزم وقتل عام ٩٤٧ .

افريقيا Ifriqiya

منطقة في شرق المغرب تشمل تونس الحالية .

ابو قرة Abou Qorra

زعيم احدى الدويلات الخارجية في المغرب الاوسط . وتقع دولته على حدود تلمسان وكانت تساعده قبيلة عفران .

المنصور El Mancour

خليفة بولوجين في السلالة الزيرية .

هودنا Hodna

حوض منغلق مؤلف من الهضاب العليا في الجزائر الوسطى.

بني هلال Beni Hilal

قبيلة متنقلة تمركزت في صحراء الحجاز ايام الخلفاء العباسيين . وفي منتصف القرن الحادي عشر ارسلهم الخليفة المستنصر لصد المعز ابن باديس ، حاكم افريقيا المتمرد .

الحفصيون **Hafsides**

سلالة بربرية في المغرب حكمت مشرق البلاد من ١٢٢٨ حتى ١٥٧٥ . سميت نسبة الى الشيخ ابو حفص عمر ، القائد في عهد عبد المؤمن .

فيغنـغ **Figuig**

واحة صحراوية على الحدود الجزائرية المغربية قرب وادي زوزفانة .

الادريسيون **Idrisside**

(٧٨٨ ـ ٩٨٥) . سلالة حكمت غرب المغرب في الفترة التي حكم الاغالبة فيها الشرق .

يغموراسان **Yaghmodrasan**

مؤسس السلالة الزيانية في تلمسان . مات عام ١٢٨٢ . اعلن نفسه خليفة في تلمسان عام ١٢٤٤ .

الفنـدال **Vandales**

شعب جرماني تمركز بين الاودر والفستول ثم انتشر في

جنوب اوروبا وفي المغرب .

صـــور Tyr

مدينة فينيقية جنوبية ، بنيت فوق جزيرة في البحر المتوسط قريبة من الشاطىء .

تونس Tunis

اسست قبل قرطاجة بكثير ، ويعود الفضل في شهرتها الى السلالة الحفصية التي اتخذتها عاصمة لها .

توغـــورت Touggourt

واحة صحراوية تقع عند التقاء الوديان الصحراوية فـــي «ايغرغر» مع «وادي ميا» .

الاصنـــام Al Asnam

كان اسمها «كاستلوم تنجيتانوم» في العهد الروماني ، وتقع على الضفة اليسرى للشليف .

اوارغـــلا Ouargla

واحة صحراوية .

فينيقيا Phenicie

منطقة ممتدة على طول ساحل البحر المتوسط على الشاطىء السوري من راس الناقورة جنوبا وحتى مصب العاصي شمالا .

الحماديون Hamadites

سلالة بربرية في المغرب متفرعة عن الزريديين في تونس .

فاس Fes

مدينة في غرب المغرب . تقع في وسط المنطقة الفاصلة بين «الريف» و«الاطلس» وهي واحدة من كبرى مدن المغرب الاسلامي.

الفاطميون Fatimide

سلالة مغربية نشات في القرن العاشر على بقايا الاغالبة والادارسة .

شليف Chelif

اول نهر في الجزائر (٧٠٠ كلم) ، ينبع من الهضاب العليا ويجري من الغرب الى الشرق بين «الداهرة» في الشمال و«الاوارسنيس» في الجنوب ، ويصب في البحر المتوسط قرب «مستغانم» .

قرطاجـة Carthage

كانت تنافس روما ثم اصبحت مستعمرة لها وتقع عنـد الطرف الشمالي الشرقي للمغرب في عمق خليج تونس على شاطىء البحر المتوسط .

عبيد الله Obeid Allah

مؤسس سلالة الخلفاء الفاطميين في المغرب ومصر . ولد عام ٨٨٢ وتوفي عام ٩٣٤ في المهدية .

وهـران Oran

تأسست في القرن العاشر على يد البحارة الاندلوسيين ، وتقع على منفذ البحر المتوسط .

دجيجـل Djidjell

اسمها الروماني ايغلغليس ، تقع على مرفا «كبيليا» .

كولـو Collo

مرفا للقسطنطينة ، كان قرتاده القرطاجيـون والرومان ، ويبحر منه الفلين القادم من الغابات الغنية المجاورة .

روما **Rome**

عاصمة الامبراطورية الرومانية وتقع على ضفتي «التيفر» .

سبتيم سيفير **Septime Sévère**

امبراطور روماني ولد في «لبتيس ماغنا» في المغرب وتوفي في بريطانيا عام ٢١١ .

صقلية **Sicile**

جزيرة في البحر المتوسط .

سيبو **Sebou**

نهر في المغرب الشمالي .

تفنة **Tafna**

نهر في المغرب الشمالي ينتهي في منطقة وهران .

طارق ابن زياد **Tarik Ibn Ziad**

قائد مسلم من اصل بربري ولد في النصف الثاني من القرن

السابع وتوفي حوالي عام ٧٢٠ .

طيهرت Tihert

مدينة في الهضاب العليا الوهرانية . اسمها الروماني «تنغارسيا» وهي اول عاصمة في المغرب الاوسط الاسلامي المستقل .

المعز El Moizz

خليفة فاطمي ولد في المهدية عام ٩٢١ وتوفي في القاهرة عام ٩٧٦ .

الشيعة Chiisme

اسم اطلق على جماعة الخليفة علي بن ابي طالب الذي اعتبر وصول ابي بكر وعمر وعثمان الى الخلافة امر غير شرعي واختلف في ذلك مع «ألسنة» .

ماغون Magon

اسم عائلة قرطاجية ضاهت برقة Barca بسلطتها السياسية والمادية .

ابن رشد Ibn Rochd

فيلسوف شهير ولد عام ١١٢٦ في قرطبة وتوفي عام ١١٩٨ في مراكش .

بولوجين Bologgin

حماد بن بولوجين ، مؤسس السلالة البربرية الحمادية . توفي عام ١٠٢٨ .

المرابطون Almoravide

سلالة بربرية حكمت شرق المغرب وقسما من اسبانيا من عام ١٠٥٥ حتى ١١٤٧ .

مسيلا M'sila

مدينة تقع في شرق الجزائر .

بوليب Polybe

مؤرخ يوناني ولد في «ميغالوبوليس» في «اركاديا» حوالي عام ٢١٠ ق.م. وتوفي حوالي عام ١٢٥ .

قرطاجي (بوني) **Punique**

متعلق بقرطاجة .

المرينيـــة **Merinide**

سلالة من الامراء الذين تغلبوا على «المرابطين» وحكموا المغرب من عام ١٢٦٩ حتى ١٥٥٠ .

مستغانـم **Mostaganem**

مدينة في شرق وهران ، كانت في القرون الوسطى مدينــة تجارية مزدهرة مع ضاحيتيها «تيفديت» و«مازاغران» .

المالكيــة **Malekisme**

مذهب اسلامي اســـه مالك بن انس وهو متشرع ولد ومات في «المدينة» (٧١٣ ــ ٧٩٥) .

مولويــا **Moulouya**

نهر في المغرب الشمالي ينبع من وسط «الاطلس» ويــروي سهل «اغناد» وينتهي شرق «مليلا» .

الفهرس